

اقرأ

يوسف القضاة

قصة عبقري

دار المعارف للطباعة والنشر

قصہ عبقری

يوسف الغنم

قصة عبقري

اقرأ
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر
٤٢

اقراً ٤٢ — مايو ١٩٤٦



جميع الحقوق محفوظة
دار المعارف بصر

بسم الله الرحمن الرحيم

(اجتمع أدباء من كل أفق بمكة فجعل أهل كل بلد يرفعون
علماءهم ويقدمونهم حتى جرى ذكر الخليل بن أحمد الفراهيدي
فلم يبق أحد إلا قال الخليل أذكى العرب) .

(أبو أحمد التوزي)

وهناك قصة الخليل بجمال نفسه وحسن خلقه

وقوة عبقريته. وإيس المؤلف فيها بعد الاختيار

والحبك إلا تفصيل الحوادث

والشعور بمظنة الرجل

الفصل الأول

انطلق الصبية يلعبون في أزقة البصرة عام ١١٢ للهجرة ،
يتراكضون ويتسابقون ، يجتمعون ويفترقون ، وفيما هم في لعبهم
ضاحكون ، إذا أحدهم يصرخ مشيراً إلى رجل أقبل من بعيد ،
وهو على بغلته ، يكاد لا يظهر عليها لقصره ، فاجتمع الصبية
متقاربين ، وأخذوا يتأملون فيه ساخرين ، وهو يتقدم نحوهم .
قال أكبرهم : أنظروا إلى شاعر البصرة ، وحامي لواء قبيلة بني
تميم ، أنظروا إلى الفرزدق ، وقولوا : هل رأيتم أقبح من هيئته
وأقصر من قامته ؟ فضحك الصبيان ، وتقدم الفرزدق حتى وازاهم
وقد شمخ بأنفه ، وتنفخ شدقيه ، وبسط ساقيه ليعلو جسمه على
ظهر البغلة ، فيخفي شيئاً من قصره ، فما زاده هذا الوضع إلا غرابة
وقوى عجب الصبية ، واشتد اهتمامهم ، وكثر تهامسهم ، أما هو
فساءه نظرهم وعبس في وجوههم علمهم يرتدون عنه ، ويخشون
نظراته ، ولكنهم أبوا الانهزام أمام تلك النظرات ، وسرم

عبوسه ، وقصدوا الكيد به ، كما اعتادوا أن يكيدوا لبعض المارة .
 وشعر هو بذلك ، فخشى أن يصبح سخرية لهم ، ورفع عصاه التي
 يهز بها بقلته ، ولوح بها أمامهم ، وقال بصوت أجش ثقيل :
 نظروا إليكم بأعين محمرة

نظر التيوس إلى مدى القصاب
 قال ذلك ، وردده مرتين رافعاً صوته عند كلمة المدى ، وكأنه
 كان يقول : إنكم تيوس تنظرون إلى بأعين محمرة خائفين من
 هذه العصا التي هي المديّة حضرتها للبطش بكم ، ثم يردد قوله :
 نظروا إليكم بأعين محمرة

نظر التيوس إلى مدى القصاب
 وكان إنشاده الشعر بصوت قوى . يخرج من الحنجرة متثاقلاً
 وتهديده بعصاه ، وكان قد عاد من الحرب التي شنتها المهالبة ،
 كان كل ذلك يوحى الشدة والخوف ، فتراجع الصبية وجلين ،
 وقد أخافتهم كلمة المدى وتلويح العصاة أكثر مما استثارهم تشبيهه
 لهم بالتيوس . تراجعوا إلا واحداً منهم ، أشار إليه الصبية يقولون :
 ها هو ذا الخليل يقصد أمراً مهيّباً . قالوا ذلك ، ووقفوا ليروا ماذا
 يجري ، وقلوبهم مضطربة . أما الخليل فتقدم قليلاً إلى الفرزدق

بـقدم ثابتة ونفس مطمئنة ، وقال : هل أغضبك نظرنا إليك
 وتأملنا فيك ، فرحت تهـددنا وتشتـمنا . إنا نظرنا إليك لأنك
 مليح كما ينظر إلى القرد لأنه مليح . قال الخليل هذا الكلام
 رافعاً رأسه غير هـياب ولا وجل . وما سمع الصبية كلامه حتى
 صاحوا مهـللين ضاحكين . ولم يكن الفرزدق يتوقع ذلك ، فاتقد
 غيظاً ، وكاد ينزل عن بغلته لينهـال على هذا الصبي المتمرد الشجاع
 ضرباً بعصاه . ولكنه تذكر جريراً — لحى الله جريراً — إنه
 إذا بلغه أن صبيّاً من صبيان البصرة هـزىء بشاعر بني تميم ،
 فوصفه بالملاحه أولاً ثم شبهه بالقرد ثانياً ، إنه حـرى بأن يتخذ
 من هذا موضوع تهكم لاذع . ثم إذا علم جرير — ويح لجرير —
 أن هذا التشبيه ساءه ، فاعتدى على قائله ، ألا يجعل منه قرداً
 يتهاـرش مع الصبيان ؟ ذكر الفرزدق كل ذلك ، فأحجم عن
 النزول ، وتمسك بزمام البغلة ، وأشار إليها بأن تجـد السير . وما
 كاد ينطلق حتى اجتمع الصبية حول الخليل يهـللون معجبين
 بذكائه وإقدامه .

الفصل الثانى

مر الزمن و إذا الصبى الذكى الشجاع يصبح شاباً . و إذا هو يخرج من غرفته ، وهو يخفى فى طيات ثيابه خنجره ، فتضطرب والدته ، وقد رآته يفعل ذلك ، وتقول : ما بالك يا خليل ، إلى أى أمر مهم تخرج يا بنى ؟ إني خائفة عليك من أصحابك ، وأراهم يدفعونك إلى ما لا تحمد عقباه . فبالله عليك دعهم وشأنهم ، فإنك لم تخلق لما يدعونك إليه . أما رأيت أبا على يتنبأ لك بالعلم الجميل ، ويصفك بحدة الذكاء وقوة القريحة . للعلم خلقت يا بنى لا لشيء آخر ، ألا فاعطف على قلب والدته وضعت فيك أملها ، وأحبتك أكثر ما تحب الأم ابنها . فنظر الخليل إلى والدته نظر العطف والمحبة ، وقال : أنا ابنك المطيع يا أماء ، ولكن أتراك نسيت شجاعة بنى أزد وقوة مراس الفراهيد ؛ أأست حفيدك القبيلة وابن هذه العشيرة ؟ أو تنجبان الجبناء ، ثم أنى لا أفعل إلا ما يقتضيه فرض الدين على ، فقرى عيناً ولا تحزنى . قال

الشاب ذلك وانطلق يعدو ، وهو يخترق شوارع البصرة لا يلوى على شيء ، وكأنه ذاهب إلى موعد مع حبيب . ويخرج من البلدة ، فيعطف في منمرجات خفية وشعاب وعيرة تفضى به إلى ما وراء أكمة ، فيجد شيخاً وسياً قد أهدت به حلقة من شبان أشداء ، ينظرون إليه بإيمان ، ويشير الشيخ إلى الخليل : أن اجلس ، فيقعد القرفصاء ، ويصغى بكليته إلى الشيخ ، وإذا بهذا يقول : لقد كفر بنو أمية وضلوا سواء السبيل ، فلا أمر بالمعروف ، ولا نهى عن المنكر ، ولا اعتصام بمحدود الله . يعلمون الناس النفاق ، ويدعون إلى المعصية ، فجزأؤهم وتابعيهم القتل ، وساء سبيلاً . يجتمع إخواننا من الخوارج من كل صقع ليدافعوا عن دين الله ، ويدبوا عن حماه . وسيكمنون لجيش الخليفة الآتى من الشام ، فيبادرونه بالسيف ، ويقتلون أمة الباطل وأعداء الله فهل أنتم على استعداد ؟ فيصيح الحاضرون بصوت واحد : نحن شراة فإلى الجهاد . فيقول الشيخ ستغادرون البصرة صباح الغد إلى حيث تجتمعون بالإخوان ، والأمر فيكم لأى نحيم ، ولا تنسوا رأى الخليل ، فهو حكيمكم ، وإليه مشورتكم . وسأرسل إليكم النجدة ممن استثيره من أصحابنا الإباضيين .

وينفض المجلس على أن يخرجوا صباح الغد ، و ينطلق الخليل إلى الجامع ليودع حلقات العلم فيه ، فهي التي سيفقدها من البصرة وسيحن إليها ، فما أحراه بأن يتزود منها قبل خروجه . و يحبب تلك الحلقات ، فتجذب به حلقة لشيخ كبير ، هو أيوب السختياني وكان يمر بها فلا يقربها ، لأن أصحابه كانوا يتقونها عملاً بنصيحة شيوخهم . فقد كان هؤلاء يدعون أن المتصدر بها يدع الحق للباطل . و يتوق الخليل إلى سماع شيخ السنة هذا الذي اشتهر بالعلم وتربأ به نفسه أن يخرج من البصرة إلى غزوة لا يعرف أيا من ينتهي دون أن يستمع إلى شيخ تفرد بالمعرفة واشتهر بالعلم .

يقف على تلك الحلقة ، فيسمع كلاماً ما سمع اللف منه ، فتؤخذ نفسه به ، وينظر إلى الشيخ ، فيراه يتفرس في وجهه وهوية كالم ، فيطرق رأسه ، ويجلس بين الناس ليتجنب تلك النظرات ، فيسمع الشيخ يقول : حدثونا عن البراء بن عازب أن رسول الله قال : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق ، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم الله النار .

كذا يقول رسول الله ، وأين هذا مما يدعيه بعض أهل

الأهواء من وجوب قتل كل من لا ينضم إلى حزبهم، ويقول بذهبهم يدعون أن من سواهم كفرون، فكأنهم لم يسمعوا حديث رسول الله حيث قال: ما أ كفر رجل رجلاً إلا بآء أحدهما بها إن كان كافراً، وإلا كفر بتفكيره.

وظفق الشيخ يورد من ذلك أقوالاً كانت نفس الخليل تضطرب لها، ومما قال عن عبد الله بن مسعود، قال قال النبي (ص): لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان. وزنى بغير إحصان. وقتل نفس بغير نفس. قال الشيخ ذلك وكأنه قصد إسماع الخليل. ثم أضاف قائلاً: رأيتم أيها الناس مسلماً يقتل مسلماً، والروم متحفزون للقضاء علينا جميعاً، ألا بئس تشتت المسلمين وتصادمهم، ألا من ادعى حب الإسلام. فليخرج إلى قتال من يحاول طرد المسلمين من بلادهم لا إلى قتال من نصبوا أنفسهم للدفاع عنها.

وتنفذ الحلقة، فيقوم الخليل، وهو يقول في نفسه: والله لقد صدق الشيخ، وما يعلم أحد خطأ معلمه حتى يجالس غيره، كيف يقتل المسلم المسلم إذا أخطأ برأيه، وكيف يقوم أمر المسلمين إذا وجب عليهم الخروج على صاحب الأمر فيهم، كلما ظهر لهم

منه هفوة أو بدت لهم منه خطيئة . وما أرى أصحابنا إلا استهوتهم
شجاعتهم ، واستحكمت منهم صلابة رأيهم ، ففعدوا للمخطئين
كل مقعد ، يريدون تقتيلهم وإرجاعهم إلى الحق وهم لما يعيدوا
إليه إنساناً ، يقتلون فيقتلون إلى ما شاء الله . ولا يزال المسلمون
في نقصان إلى أن ينقضى أمرهم ، ألا تبس الرأي ما ارتآه أصحابي .
وتصور نفسه وهو يذبح أخاً له مسلماً من الوريد إلى الوريد
فاقشعر بدنه هولاً ، وعاد إلى البيت مكفهر الوجه ، واستقبلته
أمه فوجدته على غير ما تركته ، فهاها الأمر وصارت تستفهم
منه حتى حدثها بما يجول في خلده ، فقوت عزمه على عدم الخروج
فقال لها : لن أخرج لقتال جيش الخليفة . وما كاد ينهى جملته
هذه حتى صفقت فرحاً ولكنه قطع بهجتها بقوله : أعدى لي
عدتي فساد ذهب إلى بلاد الروم مجاهداً . وذهب منذ اليوم الثاني
إلى الثغور للدفاع عن الإسلام .

الفصل الثالث

عاد بعد زمن موقفاً مظفراً ، وكان همه بعد عودته أن يستزيد من علم أيوب ، وأن يتفقه بمعرفته ورأيه ، فوجد أستاذاً يعرف حق الطالب المجد ، ويقدر الموهوب ذكاه ؛ وإذا بالخليل يصبح أخص تلامذته وأقربهم إليه . ولا يمضي القليل من الزمن حتى يعلم الخليل من السنة والحديث أكثر مما يعرفه كل أصحاب الشيخ .

كان الخليل يسمع من شيخه مديحاً كثيراً . ويلقى منه محبة خالصة ، لكن ذلك كان يزيد تواضعاً واحتراماً . كان شأن الخليل شأن معظم العلماء النابغين ، يصرفهم نبوغهم عن الاكتراث بالشهرة وعن الاحتفال الشديد بالنفس ، بل كان محتقراً لنفسه ، لا يقدرها حق قدرها ، يظن فيها سوء ، ويحملها المتاعب .

وكان كثيراً ما يقف على حلقة أصحاب العربية والنحو ،

فيرى الجدال محتدماً بينهم والاختلاف قائماً ، ويستهو به علمهم الذى يطلق المجال للفكر ، ويحسن للقريحة النظر ، فينوى الالتئام إليهم ، فيجلس معهم سنة ، وهو يسمع ولا يتكلم . وكيف يتكلم بما لا يعرف ، وكيف يجادل فى أمر لا بد أن ينقطع فيه . كان يتهيب العلم ، ويخشى الزلل فيه . ولما كانت السنة الثانية من انتماؤه إلى حلقة العربية صار ينظر فى المسائل ، ويتأمل صعوبتها ، ويفكر بحلها ، ولكنه ما زال صامتاً لا يتكلم مع أن غيره كان يكثر من القول ويتبسط فى السؤال .

انقضت السنة الثانية ، والتحليل لا يثق بعلمه فى النحو ، ولا يقدم على السؤال . فلما كانت السنة الثالثة صار يتدبر العلم الذى يتلقاه وقد انبسط له منهاجه ، واتسع فيه أفق تفكيره ، ولكنه ما برح يربأ بنفسه عن الاشتراك فى الجدال والمناظرة ، يهابهما ويعظم شأنهما . وكان يذاكر رفاقه بعلمه خارج الدرس ، فيلقون منه حذقا ومعرفة ، ويتنبأ النبهاء منهم له بنجاح عظيم . أما غير النبهاء فلا يرون فيه إلا مستمعا ناصتا ، وطالبا هادئا ، وذكاء متوسطا .

وتنقضى السنة الثالثة ، وتحل الرابعة ، فإذا الصمت ينكشف

عن علم خزن تحته ، ورأى كنز فيه ، وإذا بالخليل يسأل الأستاذ
سؤالاً يدهشه به ، فيجيبه عنه ، وهو ينظر إليه معجباً . وتتوالى
الأسئلة من الطالب النجيب ، ويكثر كلامه ، فيلتفت الرفاق
إليه ، يكبرون علماً قوياً ، ونظراً عميقاً يبدوان من شاب في
مقتبل العمر ، لم تكن دلائل النجابة تبدو عليه ظاهرة فياضة .
كان يفوص بسؤالاته في أصول النحو ، وكأنه يريد تقرير
قواعد جديدة فيه ، لما يكتشفها أصحاب العربية .

ويقضى السنة الرابعة ، وهذا شأنه يسأل ويستفهم ، ويجوب
آفاق النحو ، ويبعث المسائل فيها ، والأستاذ يزداد تعجباً منه
وحباً به ، والطلاب يقبلون عليه للاستفادة منه ، والاستقاء من
ينبوع علمه ، حتى إذا انقضت تلك السنة صاروا يشيرون
إليه بالأصابع .

الفصل الرابع

أقبل رفيقه أبو المعلى إليه يوماً وقال : يا خليل ! لعلك لم تقدر الشأو الذى أدركته فى علم العربية والغاية التى ستدركها منه . لقد فقت شيخنا وتعديته ، وصار من حقلك أن تتراأس حلقة فى الجامع ، فتفيد الناس من علمك ، وليس شىء أصح لذلك من أن تناظر شيخاً فتفحمه وتظهر عليه ، فيعرف الناس فضلك ، ويسير ذكرك ، ويلتئم محبو المعرفة حولك ، وإني أدري أنه قبيح بك أن تناظر أستاذك الذى به تخرجت ، أما أن تقوى على شيخ آخر فحق من حقوقك . وهذا أبو عمرو بن العلاء شيخ العربية — الذى قضى خمسين سنة يدرسها — يقيم درساً للنحو فى الغد ، يجتمع إليه فيه الشيوخ والطلاب ! فما عليك إلا أن تضع له أسئلة تنتهى منها إلى مناظرته وإفحامه . وذلك حق لك إن لم تطلبه اليوم ، فستطلبه فى المستقبل ، مهما كان بعيداً .

قال الخليل : لقد سولت لى نفسى أمراً كهذا ، ولكنى أحجمت عنه حتى اليوم لأنى خشيت على نفسى ، إن أنا ظهرت فى المناظرة ، أن يأخذنى من الخيلاء ما يصرفنى عن التعلم . ومن حق نفسى على العلم ومن حقه عليها ألا يصرفنى عنه زهو أو باطل . قال صاحبه : إن خشيتك ضمان لك مما لا أرى خوفاً عليك منه ، فإلى الغد أيها الرفيق النابه .

عقدت حلقة النحو فى غد ذلك اليوم ، واجتمع الناس فيها من علماء ومتعلمين وشيوخ وشبان ، وأقبل أبو عمرو بن العلاء أستاذ العربية — وكان شيخاً جليلاً مهيباً قد جاوز الثمانين — فنهض الحاضرون إجلالاً ، فتصدرهم على طنفسة بسطت لأجله . وشرع فى درسه بعد حمد الله . وكان الخليل وصاحبه قد اتخذا من الحلقة مكاناً ظاهراً ، ومع الخليل دفاتره ، وصاحبه يهمس فى أذنه حيناً بعد حين كلمات التشجيع ، يقول له : إن هذا يومك يا خليل ، وسيصغر علم هذا الشيخ المسن أمامك ، وسيحدث الناس جيلاً بعد جيل بغلبتك له . هذا والليل يبتسم له ويطمئنه وما عثم أبو عمرو أن غاص فى عويص مسائل النحو ، فظهر علمه وفضل كبيران ، فالرجل متمكن من النحو ، عارف بخفاياه . على

أن هذا العلم كان حديثاً ، ووجوه التفسير فيه ضيقة ، والقياس فيه قليلاً . وعثر الشيخ بمسألة كان الخليل مجلياً فيها ، فابتهجت أسارى رفيقه ، ومال إليه يقول : لقد أزفت الساعة ، هيا أظهر ما عندك ، واسأل سؤالك ، وسيرتبك الشيخ . قال ذلك ، وتهياً لسماع المناظرة التي لم يكن يشك في نتيجتها . ولكنه انتظر كثيراً والخليل مطرق لا يتكلم ، والشيخ ماض في بحثه ، وقد انتقل إلى قضية جديدة . وعجب أبوالمعلّى من وجوم الخليل ولم يجد لذلك تأويلاً إلا أن الخليل لم يشعر بصلاح المسألة التي مرت للجدال ، فصار ينتظر أن يعثر الشيخ مرة أخرى . ولم يطل انتظاره ، فهذا أبو عمرو يطرق بحثاً هو مكان القوة من تتبعات الخليل . فاطمأنت نفسه ، وأشار إلى هذا : أن قد قرب الحين . وأتى الشيخ في بحثه بأقوال قديمة مبعثرة . والتفت أبوالمعلّى إلى الخليل وقال : إليك وسعداك . فأطرق الخليل أكثر من ذي قبل ، وازداد عجب صاحبه واضطرابه . وقال له يدفعه : ما دهاك يا صاحبي أنسيت ما أتيت لأجله ؟ أيسرك أن يبقى علمك دفيناً تطوى عليه أضلاعك ؟ فلم ينبس الخليل ببنت شفة ، ولم يعثر الشيخ بعدها ، بل أتى ببحثه من كل جليل ووثيق . ثم ختم دروسه

وقرأ الفاتحة . وأقبل الناس إليه يحيونه ويبجلونه . ونهض الخليل
يحمل دفاتره ، وأبو المعلى قلق غضبان . قال : إنك يا صاحبي
أحد شخصين إما جبان وإما معتوه ، وأياً كنت ، فقد أضعت
فرصة لو نطقت بها لخرجت رئيساً من رؤساء العربية . قال
الخليل وهو يبتسم ابتسامة المستهزئ : لست جباناً ولا معتوهاً ،
والكنى رأيت شيخاً هرمًا قد حمل العلم ستين سنة وأفاد الناس
وترأسهم خمسين عاماً ، رأيت يخرج علماء من عنده اكتشفه
وأذاعه ، فأخذته من شيوخى سهلاً يانماً ، ثم فتق لي منه عدد
من المسائل ما كنت لأجدها لولاه . فوجدت قبيحاً بي أن
أسقطه بها — وقد أخرجتها بفضله — فأوضح علمه في البلد ،
وأضيع حقه وحرمة ، لا فعلت ذلك أبداً .

الفصل الخامس

بهذا الخلق انطلق الخليل في الحياة ، ودخل معتركها ، ونفسه راضية بما أقرها عليه ، مطمئنة إلى أمرها لا تجادل صاحبها ، ولا تورده مورداً غير مورد الكرم والمروءة . كانت تلك النفس تسمو ، وصاحبها يقود زمامها فلا يتعبه الصعود ، والمرء قوى بما عقد الهمة عليه .

وانقطع إلى النحو ، واتصل بأبي عمرو بن العلاء ، وبسط له المسائل التي وجدها ، فأعجب بها ، وشجعه على المضي ؛ وأحدث في نفسه الثقة بنبوغه ومقدرته . فانطلق إلى التفكير والإبداع ، وكانا أعز سجاياها ، فما كان الناس يرونه إلا مطرقاً يعمل فكره ، وسائرأ على غير هدى ؛ وكان لا يشعر بنفسه إلا وهو في الصحراء ، وقد خرج من المدينة ، فيرتد على عقبيه . وانكشفت له مسائل النحو فصار يبحث عن قواعد عامة يحصرها بها ؛ ويعود إلى التفكير هذه المرة أكثر من ذي قبل ، فالقواعد العامة المنطقية ليست

أمراً سهلاً إيجاده في لغة كثرت لهجاتها ، وتوزع أهلها في بلاد واسعة . ولكن الخليل ليس من أولئك الذين توقعهم الصعوبات . كان إذا وجد في قياسه خللاً ، أحدث قياساً جديداً ، بل قياسات عديدة . ولم يكن يرتضى بالنتيجة التي يصل إليها ، مهما كانت خلافة ، بل كان يأبى أن يخلب بالظواهر الخداعة . وسر الأمر في ذلك أنه لم يكن يعمل ليرضى من نفسه حباً في الشهرة ، أو رغبة في الظهور ، أو ميلاً إلى التبجح . كان يجد لذة في الفكر ، وسروراً في التأمل ؛ فلا يثنيه شيء عنهما . حتى إذا كشف عن سر لم يجعل ذلك غاية سروره ، بل عاد إلى التأمل فيه ونقده بل نقضه .

واكتشف في النحو قواعد وروابط أدهشت شيوخه ، وأظهرت عبقريته ، فأمن بها أكثر الناس ريباً . وأحذق به العلماء ، يرفعون من شأنه ويمدحونه ، فدخل في نفسه شيء من الاعتزاز الذي يصيب كل الناس ، وما كان له أن يعتز ، فأرسل إليه من ينقض تشاغحه .

هذا رجل يأتي إليه ، ومعه غلام ، فقال له : هذا ابني وعزيزي ؛ ورغبتى إليك أن تكمل تعليمه ، وتحسن إرشاده .

فقال الخليل للغلام : اقرب يا بني ، ودعني أسألك أسئلة أدرك بها درجة معرفتك . فقال الغلام بجرأة : سل ما تشاء . قال : يا بني ! رأيت هذه النخلة ؟ قال : نعم . قال : فصفها لي . قال : إن لوصفها وجهين ، فإما أن يوصف ما حسن منها ، فتبدو صالحة ، وإما أن يوصف مساوئها ، فتبدو سيئة . أفمدح أم بدم تريد أن أصفها ؟ قال : أحسنت يا بني بهذا التفصيل ، وإني أفضل أن تمدح نخلاتي ، فتحببها إلي . قال : إنها حلو مجتنهاها ، بأسق منتهاها ، ناضر أعلاها . قال الخليل : حسن يا بني ، وعساها أن تكون كما قلت ؛ فذمها لي حتى أعرف سوءها . قال : إنها صعبة المرتقى ، بعيدة المجتنى ، مخوفة بالأذى . فنظر الخليل إلى الغلام مشدوهاً مدهوشاً : غلام لما يبلغ الحلم يحسن من الكلام والأدب ما لعل العلماء يعجزون عنه . تخيل نفسه بهذه السن ، فتذكر أنه لم يكن يتصور الأشياء كما يتصورها هذا الغلام ، ولا يحسن من الفكر ما يحسنه ، وبدا له أن الغلام إذا بلغ من العمر سنه كان بحرأفى العلم يغترف منه ؛ فصغرت نفسه عنده ، وسقط اعتزازه بها . والتفت إلى الغلام وقال : يا بني نحن إلى التعلم أحوج منك .

لم يكن هذا الغلام إلا النظام ؛ ذلك الرجل الذي ترأس
المعتزلة يوماً ، والمعتزلة أئمة البيان ، وأسياد القول ، بل وصفوا
بالكلام ، ونسبوا إليه ، فسيماهم الناس متكلمين ، على كره منهم
بهذا اللقب . ولعله خفي على الخليل أن ذكاه غير ذكاء الغلام ؛
رزق هو من التفكير والنظر العميق ما لم يرزق النظام ، واتصف
هذا ببيان و بلاغة وانطلاق لسان لم يوبها هو . وكذلك عد
نفسه مقصراً أمامه ، وكذلك أراد الله له الخير ، فأبعد الخيلاء
القتال عنه .

الفصل السادس

انقطع إلى التعليم ، يجد فيه تسليية ، وضرباً من اختبار آرائه ، وتوطيد علمه . وقد يجد فيه الفكاهة الكثيرة .

وقف حمار على باب الخليل ، ونزل منه رجل عليه علامة السفر ، ثم أنزل ابنه ، وطرق على الباب طرقات مستمراً ؛ فأقبل الخليل يستجلى الخبر ، فوجد الرجل وابنه ، فحياهما ودعاها للدخول ، فدخل الرجل ، وهو يظهر الرغبة في السرعة ؛ وعرف الخليل ذلك منه ، فأراد أن يرضى رغبته ، فعجل إليه بالسؤال عن بغيته ؛ فشمر الرجل عن ساعديه ، وقال يعتمد البلاغة :

ثبتت بنبوغك ، وأسمعت الشيء الكثير عن ذلك فعولت على أن أجمع ابني بك ، فيتعلم منك ، فحشنتك به من سفر بعيد تحملت مشقته ؛ ولا إخالك إلا رأيت الحمار الذي حملنا . قال الخليل ، وهو ينتظر ختام القصة : نعم رأيت ، وإنه لجميل .

قال الرجل : أريدك على أن تؤدب ابني شيئاً من علم النجوم ،

وأن تعلمه ما يكفيه من النحو ، وأن تلقنه ما يحتاج إليه من الطب ، وأن تفهمه فرائض الفقه ؛ ثم نظر الرجل إلى الباب ، وأشار إليه وقال : إن الحمار على الباب ينتظر فراغك من ذلك لنعود عليه ... ضحك الخليل في نفسه ضحكاً كثيراً أخرجته عن اعتداله وجده ، فقال : إلى يا بني لأعلمك ما يرغب والدك من هذه العلوم . اعلم يا بني أن الثريا في وسط السماء ، وكفاك بذلك معرفة من النجوم ؛ وأعرف أن الفاعل مرفوع ، وبذلك المعرفة بدىء النحو ، ولعله بها يختم ؛ ولتدرك أن الهليلج الكابلي دافع للصفراء ، وهذا من الطب في مكان عظيم . واعلم أنه إن مات أحد وترك ابنين ، فماله وثروته وممتلكاته وأمتعته تقسم بينهما سواء بسواء ، وذلك أصل علم الفرائض . إنك يا بني إن عرفت ذلك ، أدركت من العلوم التي ذكرها والدك ما يليق بك — وأنت ابنه — أن تعرف منها . فشكر الرجل الخليل وقال : قم يا بني ، ولا تنس ما قال الشيخ لك ؛ وفتح الباب ، فوجد الحمار ينتظر عودتهما ليحملهما والعلم الذي أصاباه .

الفصل السابع

انقطع الخليل أمداً طويلاً عن الناس ، وصار أصدقاؤه يبحثون عنه ، فلا يرونه . ومنهم أبو المعلي بحث عنه كثيراً فلم يجده ، وسأل عنه في بيته ، فقيل له : إنه يخرج في الصباح الباكر ، فلا يعود إلا في الأمسيات المتأخرة . وترصده صباح ذات يوم ، فرآه يسير في غير التفات ، فتبعه فألفاه يخرج من المدينة ، فعجب من أمره وظل يتبعه ، فوجده يسير على غير هدى ، فتقدم إليه وحاذاه ، فلم ينتبه الخليل ، فجذبه من ساعده ، فاضطرب ونظر إليه وقال : هذا أنت يا أبا المعلي ، ما الذي أتى بك ، قال : لعل عاشق ولهان مثلك ، أهيم في الصحراء ، أتصور خيال عشيقتي في رمالها . قال الخليل : دع عنك هذا ولا تهزل فما نحن في الهزل قال : فقيم إذن نحن ، أوليس العشق هزلاً وعبثاً ؟ آه عفواً ، فالمغرمون لا يبيحون للناس أن يسخروا من حبهم ، فلن أهزل بل أجد ، قل لي : من هي ليلاك ؟ قال الخليل : لا ليلي عندي

يا هذا . قال : لعلك تريد أنك لما تبجن كعجنون بنى عامر ، فستبجن
أو لعلك جنت وأنت لا تدري ، قل لى : من هى حبيبتك ؟
فنظر إليه الخليل نظر الدهشة وقال : ألم أقل لك لست عاشقاً ؟
قال : إن كنت غير عاشق ، فذلك أعجب ، ما كنت أقدر أن
المراء يؤثر الصحراء على المدينة ، فيهجر الناس حتى يخالوه مفقودا ،
فقل لى ما بك حتى أطمئن . قال : إن ما بى لا يهملك . قال :
لقد زدتنى حيرة ، أذكره فسيستثير كل نفسى . قال : أفتخفيه
إذا ذكرته ؟ قال : نعم ، فما هو ؟ أخرج الخليل من كفه صحيفة ،
وقال : اقرأ . فتأمل أبو المعلى فى الصحيفة ، فوجد كتابة عليها
النقاط من فوقها وتحتها ووسطها حتى أضاعت هيئة الكلمات .
فقال : ما هذا ؟ أتلتغز إلى شىء أم أنت فى هذر ؟ قال : لا هذا
ولا ذاك . ولكنك تعلم أن الحروف التى تتشابه صورتها تميز
بعضها عن بعض فى الكتابة بنقاط ، كالجيم تميز عن الحاء بنقطة
فى أسفلها . قال : نعم ، إن هذا أمر بديهي . قال : وأنت
تعرف أيضاً أن أبا الأسود الدؤلى رحمه الله ضبط حركات
الحرف من فتح وضم وكسر وسكون بالنقاط أيضاً ، توضع
بأعلى الحرف أو أسفل منه أو يمينه أو شماله ، وأنت

تعرف أنا نستعمل ذلك إلى يومنا . وهكذا تختلط النقاط المميزة للحروف بالنقاط المميزة للحركات ، كما ترى في هذا الرسم . قال أبو المعلى : يا للعجب . من ذا الذى يخطر له ببال أن يفعل فعلتك ، وينسى أن لا مجال لاختلاط النقاط ، إذا كتب كل نوع منها بحبر خاص . فالنقاط المميزة للحروف تكتب بالأسود والضابطة للحركات بالأحمر . قال : إن ما يشغلنى ويبعدنى عن الناس هو تسهيل الأمر على المتعلمين والكاتبين والقارئین ، أريد أن أجد ما يكتب الناس به دون تغيير الحبر ، وأود ألا يضطرب أمر المتعلمين من كثرة النقاط واشتباكها . قال أبو المعلى : أنت تقصد البدعة والخروج على ما ألفه الناس ، ووضعه الصحابة ورضوه ، وكتبوا به المصاحف ، وصار رسماً على المسلمين . فوالله لا يعرف الناس منك هذا حتى يتهموك بالشئ الكثير . دع عنك هذا الهذر ، وعد إلى رشدك . قال الخليل : ألم أقل لك إن الأمر لن يستهويك ، ولن يهملك . قال : ولكنك تفكر فيما لا فائدة منه ، ولا أجر لك فيه . ثم ماذا لعلك تجد غير ما اعتمده أبو الأسود الدؤلى ، وأقرته النحاة والكتاب ؟ فابتسم الخليل

وقال : ذلك سؤال محجب إلى ، وهو الذى استهوانى ، ومنعنى عن الناس ، فان أخفيته حتى آذن لك ، بسطته أمامك .

قال أبو المعلى متشوقاً ، أنا سامع لك ما تريد . فقال الخليل : الأمر الذى خطر على بالى هو على غاية من البساطة ، وذلك أن يرسم فوق كل حرف محرك صورة حرف المد الذى يقابل حركته فان كانت حركته الفتح وضعنا عليه ألفاً صغيرة ، وإن كانت الضم وضعنا عليه واواً صغيرة ، وإن كان الكسر وضعنا ياء صغيرة . قال : ما أعجب ما تقول ، إنك تشوه الخط يا صاحبي ، وتزيده ارتباكاً . قال : لا يا هذا ، أنظر الجمل المحررة فى الصحيفة التى لم تستطع قراءتها أنظرها هنا ، أليست مقروءة ؟ فنظر أبو المعلى ، فوجد خطأ قد علته حروف عديدة من الألفات والواوات والياءات ، فلم يستحسنه وقال : لقد شوهت الخط وأسأت إليه ، فعد عن غيك . قال : لن أعود وسأدعو الناس إليه ، حين أتم تصحيح بعض نواقصه ، فهز أبو المعلى كتفه ، وانطلق يتحدث بحديث آخر . أما الخليل فما اتبع نصيحة صاحبه ، بل أذاع طريقته بعد تحسينها ، فاستقبلها الناس بالهزؤ ، وقليل منهم بالاستحسان . فما زال يدافع عن أسلوبه حتى أقنع كثيراً من مخالفيه ، وبقى قوم متعصبون للقديم

لم يقنعوا ، وخافوا على نص القرآن أن يتغير بهذه البدعة ، فأذعن لهم الخليل ، وأوجب على طريقته أن لا تتخذ في القرآن . وتوفي ، وفي بلاد الإسلام من لم يرض بها ، وهم أهل الأندلس تعصباً أو لغير ذلك ، ثم أذعنوا لحسنها ، بل أذعن علماء القراءات لها ، فأدخلوها في القرآن ، وذلك بعد وفاة الخليل بدهر .

الفصل الثامن

كان مقام الخليل يعلو بين الناس ، ونظرتهم إليه تزداد
إجلالاً وإكباراً ، وكان هو يزداد تواضعاً وحسن أخلاق ؛ وأهم
من ذلك أن علمه كان يربأ به عن أن يهتم بكيد الناس ، وأن
يعبأ بأذاهم . كان يصنفهم طبقات ، فيرى أن لكل طبقة منهم
حقاً يوجب عليه ألا يضر لها الشر ، مهما كان اعتداؤها عليه
شديداً . كان ينظر إلى الناس نظراً عميقاً ، ويجعل موقفه منهم
تبعاً لصنفهم ؛ فالمعتدى عليه لا يمكن إلا أن يكون واحداً من
ثلاثة : أعلى منه مقاماً ، أو مساوياً له في الرتبة ، أو دونه . وكل من
هؤلاء يستحق أن يسكت عن هفوته . اسمع قوله في ذلك حيث قال

مسألزم نفسي الصفع عن كل مذنب	وإن كثرت منه على الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة	شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوق فأعرف فضله	واتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي مثلي فإن ذل أو هفا	تفضلت إلت الفضل بالمر حاكم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن	إجابته عرضي وإن لام لائم

ما هذه النفس ، وما أصفى جوهرها ، وأكثر رشدها ،
وأحسن حكمتها . لا ريب أن سفيان الثوري لم يكن مغالياً حين

كان يقول : « من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك ، فليتنظر إلى الخليل بن أحمد » . لقد كان مسكاً وذهباً ، بل لو كان خير من صفات المسك والذهب في الجوهر ، لكان له . لم يكن سفيان مغالياً ؛ فهذا أبو حاتم يؤيد قوله وينشد في الخليل :

قد صاغه الله من تبر ومن ذهب وصاغ راحته من عارض هطل
لم يكن في ذهن الخليل من الفراغ ما يشغله بالخصام مع
الناس ، والتصدى لمعاداتهم ؛ بل كان يضمن بنبوغه وبوقته
أن ينفقه فيما لا يرجي خیر منه . ثم إن التشفي ضعف يصيب الإنسان
فإن كان عاقلاً منع نفسه منه ، وعوضها عن لذته بلذة العلو
والتسامي عن سفاسف الأمور .

بهذا العقل وذلك الخلق كان يتهيأ للخليل من الوقت والفراغ
وصفاء الذهن ما يسعفه بالإبداع والخلق . كان يطلق فكره
للأشياء المحيطة به ، يحاول استخراج كنهها ، والوصول إلى
حقيقتها ، لا يرى ظواهرها فقط ، بل يحاول أن يستخرج
منها أصولاً تجمع في قانون موحد ، تلك الظواهر المختلفة المتضاربة
المتشعبة . وذلك شأن المبدعين .

الفصل التاسع

خرج يوماً وأبو المعلى يسيران في شوارع البصرة وأسواقها ،
يتحدثان حيناً ويصمتان حيناً آخر ؛ وكان أبو المعلى أكثر
قولاً من صاحبه ، وأشد تمسكاً بالحديث . وما زالا يسيران حتى
دخلا سوق الصفارين — وهى كسوق النجاسين اليوم ، تعمل
فيها الأواني النحاسية وتصفر — ويسرع أبو المعلى في مشيته
لينجو من أصوات النحاس وطرقه ، وكانت تبلغ أذنه فتدوى
فيها ، وتثقل عليها ؛ ولكنه يرى الخليل متباطئاً واقفاً حيناً
بعد حين ؛ فيقول له رافعاً صوته ليسمعه : هل يلد لك هذا
الصوت المزعج ، فتسير الهوينا ، وكأنه الموسيقى التى تسمعها
فتستحسنها ، ولا تريد الابتعاد عنها ؟ لمعت عينا الخليل عند
سماعه كلمة الموسيقى ، وربت على ظهر أبي المعلى وقال : أحسنت
وجزاك الله خيراً ، لقد عبرت عما فى نفسى ؛ نعم ، هى تشابه
للموسيقى . قال الآخر هازئاً : نعماك يا صاحبي ، أراك تحسن

الفهم ، لقد أصبحت قمقمة أواني النحاس عندك موسيقى جميلة
 تأنس لها . قال الخليل ، لا تهزأ يا هذا ، ما قلت إنها موسيقى
 جميلة ، إنما قلت إنها تشابه الموسيقى ؛ وحقاً ما الفرق بين هذه
 الآنية من النحاس يقرع عليها بالمطارق ، وبين الطبول والدفوف
 يقرع عليها بالعصى وبالأيدي ؟ كل الفرق هو أن هذه تحدث
 دويًا قويًا ، لا تقوى عليه الأذن ، وتلك تقع من الأذن موقعاً
 حسناً . قال أبو المعلى : هلم يا صاحبي نخرج من هنا قبل أن تصم
 آذاننا ، أو بالأحرى قبل أن تستوى عندك الأرض والسماء .

خرجنا من سوق الصفارين ، والخليل يردد في ذهنه فكرة
 التشابه بين طرق النحاس وقرع الطبول ؛ وما ذهباً بعيداً حتى
 دوى في أذنهما صوت هو صوت سوق القصارين . والقصارون
 أناس ينظفون الأثواب ويفسلونها ، يستعملون لذلك أدوات تسمى
 الكُذِينَق ، وهي مطارق من الجلد ، يطرقون بها الثوب المفصول
 طرقات مستمرة ؛ ومن الكُذِينَق ما يحمل قطعة من الجلد ، يضرب
 به الثوب ؛ ومنه ما يحمل قطعتين ؛ ومنه ما يحمل ثلاث قطع
 حتى إذا ضربت بها الأثواب المفسولة ، أحدثت قرعاً مختلفة
 أوزانه وضرباته باختلاف عدد قطع الجلد .

سمع الخليل هذا الطريق ، فاتجه نحوه ، واضطر أبو المعلي إلى أن يتبعه على كره منه . ووقف الخليل يستمع إلى قرع الجلود على الأبواب ، وكأن هذه الجلود كانت تسر إليه بمحدث لا يفهمه إله . والتجأ إلى حائط أسند إليه ظهره ، وأخرج لوحه ، وصار يكتب عليه خطوطاً غريبة ، ولم يعد ينتبه إلى أبي المعلي الذي وقف بقربه مشدوهاً ، وإلى المارين ينظرون إليه ، فيهر بعضهم منكبيهم سخريه منه ثم يسرون ، ويقف بعضهم حوله يتأملون عمله ، ويضحكون منه ، وهو مأخوذ بسماع الدق ، يحرك فكيه ولسانه ، ويكتب على لوحه . وكان أبو المعلي يعرف في صاحبه حبه بالألا يقاطع حين ينطلق إلى التفكير أو العمل ؛ ولكنه هذه المرة فرغ صبره ، فقال له : لعلك تجد يا خليل مكاناً أليق من هذا بالبحث والتفكير ، لقد جمعت الناس حولك ، وأخشى أن يحضر الصبيان ، فيرموك بالحجارة ظناً منهم أنك معتوه يجوز لهم تعذيبه . قال الخليل : وقد انتبه من ذهوله ، وشاهد الناس حوله : لقد نهتني في حين بلغت فيه نتيجة أراها حسنة : فلم بنا نبتعد عن هؤلاء الناس الذين لا يفرقون بين الجد والعبث . تعال معي إلى هذا المكان الضيق المنفرد ، واسمع

ضرب الكذینقات . قال أبو المعلى : أراك تهزل اليوم يا خليل ، بدأت بالنحاس ، وعطقت على الجلود ، ما شأنك بذلك ، وأنت النحوى اللغوى ؟ إذا لم تعجبك كلمة الكذینق ، فاختر لفظاً آخر ، وأشعه بين الناس ، فذلك اختصاصك ، ولكن بالله عليك لا تسمع هذا الصوت المنكر ، وتسمنى إياه . قال الخلیل : إنك يا هذا تقطع على تفكیرى بهذرك ، فليس يهمنى اليوم كلمة الكذینق ، ولست أستمع إلى هذا الصوت حياً به ، ولكنى أقصد أمراً آخر سوف تتبينه من سماع الكذینقات . اسمع هذه الدقات ، ألا تشابه دقات الصفارين ، ولكنها جامدة بسيطة لا رنة فيها ؟ أنظر إلى هذا القصار ، واسمع دقة كذینقه ذات الجلد الواحد . كان القصار الذى أشار إليه الخلیل يقرع الثوب ، بجلد يحدث صوتاً شبيهاً بالصوت الذى يحصل من كلمة (تن) ولكن القصار كان كسولاً أو ملولاً ، فكان بين القرعة والقرعة فاصل من الزمن يطول أمده ؛ فكان يحدث صوتاً هو (تن تن) ولكن النون منه طويل . قال أبو المعلى : ما أطرب هذا الصوت ، وفشر معبد ، ومرحى لنا ؛ انتقلنا من البحث فى صوت الإنسان ولغته إلى البحث فى أصوات الجلود والنحاس

ماذا بعد هذا الصوت الشجي يا صاحبي ؟ قال الخليل : استمع
 إلى هذا القصار الذي يضرب بكذيق ذات جلدتين . ففتح
 أبو المعلى أذنيه ، وأضاف إلى صماخهما يديه ، فسمع صوتاً متكرراً
 (تن تن تن) فقال مازحاً : أنى أفضل صوت القصار الكسول
 على هذا ، فهو أقل ضجة وأكثر رنيناً . قال الخليل : ولكنك
 تفضل سماع الاثنين معاً ، فانتظر قليلاً حتى يختلط الصوتان . قال
 أبو المعلى ، وقد ازداد تأفقه : لعلك تريد أن تصم أذني ، فحسبي
 ما سمعت ، وقل لي الآن ماذا استنتجت من هذه الأصوات
 المزعجة ؟ قال الخليل : لن يكون ذلك إلا بعد أن يزداد صبرك ،
 ويشتد اهتمامك ، وتصغى إلى تداخل الأصوات . قال : أمرى
 إلى الله ، إن الله مع الصابرين . وما انتهى إلى هذا القول حتى
 تداخل صوت قرع القصار الملول بالآخر فسمعا (تن تن ، تن
 تن ، تن تن) ووقف القصار الملول قليلاً ثم عاد فسمعا (تن
 تن ، تن تن ، تن تن) ووقف القصار الآخر قليلاً ، ثم عاد متباطئاً ،
 فسمعا (تن تن تن ، تن تن تن ، تن تن تن ، تن تن تن)
 قال أبو المعلى : أحسبني في شهر رمضان ، وقد حضر المسحر ،
 يقرع على طبله ليفيق النائمين .

قال الخليل : نعم التشبيه هذا ، ها قد بدأت تفهم . إنك أذكى مما كنت أظن . قال أبو المعلى : لا تتخذع يا أخى ، فلم أفهم شيئاً ، ولا أخانى أفهم أبداً . وما ذكائى بفهم هذه الأصوات إلا كذكاء الطفل بفهم حروف التشبيه وأسماء التفضيل . قال الخليل : عجباً لك ولأمثالك ! ترون الأشياء ولا تبصرونها ، وتسمعون الأصوات ولا تميزونها . وتحفظون المعانى ولا تدركونها ها أنت ذا شيهت هذه الأصوات بقرع الطبول فى ليالى رمضان ولو طلب إليك طالب أن تذكر له وجه التميز بين قرعها فى تلك الليالى وبين قرعها على أبواب الأعراس لما عرفت . قال أبو المعلى : أنى لى أن أعرف ذلك ، وأنا لا علاقة لى بالموسيقى ، ولا شأن لى معها ، فاذا كنت قد وجدت شيئاً فاذا ذكره حتى أتلهه . قال الخليل : ستسمع ما يشابه قرع طبول الأعراس فتستنتج ما استنتجت ، فانتظر قليلاً . فانتظر أبو المعلى صابراً راضياً ، وانتظر طويلاً ، وإذا بقصار ثالث يبدأ قرعه بكذنيق ذات ثلاثة جلود ، فيختلط صوت قرعه بصوت قرع الاثنين الأوّلين فيخرج الصوت الآتى (تن تن تن تن تن ، تن تن تن تن تن) .

قال أبو المعلى : إن بين هذا الصوت وقرع الطبول ليلة الأعراس

بعض الشبه ، فقل لي الآن - قبل أن يفرع صبرى - ماذا استنتجت من كل ذلك ؟

قال الخليل : الأمر على غاية من البساطة ، فهناك ثلاث نقرات مختلفة . الأولى دقة وسكون (تن) الثانية دقتان وسكون (تنن) الثالثة ثلاث دقات وسكون (تنتن) هذه النقرات إذا تتابعت أو تداخلت كونت الموسيقى . واختلاف تداخلها وتتابعها هو الذى يولد اختلاف النغمات ، فالتمييز بين النغمات يكون بمعرفة وجه اجتماع النقرات بعضها مع بعض ، بل من الممكن حصر الوجوه التى تتداخل بها النقرات وإذا حُصرت حُصرت بها أنواع النغمات وسجلت وسميت ، وأصبحت الموسيقى علماً ، له تعاريفه وضوابطه .

كان أبو المعلى ينظر إلى الخليل ، وهو يشرح اكتشافه بحرارة وإيمان ، فيدخل كلامه فى أعماق نفسه ؛ ويشعر بصحته ، حتى إذا انتهى الخليل من شرحه ، نظر إليه نظراً طويلاً ساكناً اجتمعت فيه عواطف نفسه ، فلم يتمالك أن تقدم إليه وقبله ؛ ثم لم يجد كلمة يعبر بها عن إعجابه ، فصار الدمع ينهمر من عينيه ، فعاد إلى صديقه يضمه إليه ليخفى تلك العاطفة التى جاشت فى

صدره وانتقلت إلى عينيه ؛ وأخذ يضرب بيده على ظهر الخليل ،
ويقول بصوت خفيف متقطع . الله أنت : الله أنت !

أما الخليل فلم يكن يتوقع هذا النصر على معارضه الهازل
الضاحك الذى انقلب إلى معجب يحيش بالدموع ، فأحس في
أعماق نفسه بذشوة من السرور كادت تسيل دموعه ، لولا أن
ضبط نفسه ، وملك عواطفه ؛ وعاد إلى الحديث عن اكتشافه ،
فقال بمرارة : لا تظن أن الأمر بلغ حده يا صاحبي ، أو أنه شيء
جديد لا يعرفه غيرى وغيرك ، والذى يخيل إلى أن الموسيقيين
العارفين قد قطعوا هذا الشوط من النظر ، بل لعلمهم يهزأون بي
عندما أحدثهم عما وجدت ، وقد يقول قائلهم ساخرأ : إن ما تذكر
أبسط شيء في فننا ، يتعلمه صغارنا ، ويرفع عن ذكره كبارنا .
قال أبو المعلى ، وقد أخذ الجد يلازمة : لنذهب الساعة إلى
أبي رافع ، فنتبين الأمر . فقال الخليل : ومن هذا أبو رافع ؟ قال
أبو المعلى . هو شيخ المغنين وأستاذهم ، يعلمهم الغناء وفنون الإيقاع
على الآلات قال . الخليل : هلم بنا إليه ، فسارا إلى بيته ، ووجداه
بين طائفة من أهل الغناء ، يتعلمون عنده ولما فرغ من درسه
أقبل عليهما يسألهما عن حاجتهما ، فقال الخليل : أتيناك نسألك

عن وجه التمييز بين النغمات المختلفة ؛ فنظر إليه أبو رافع نظر المتعجب وقال : أنت تريد أن تتعلم التوقيع على العود ، أم الغناء أم العزف على الدف ؟ قال الخليل : ما أريد أن أتعلم شيئاً من هذا ، إنما قصدتك لأعرف قواعد علم الموسيقى . قال أبو رافع : ما أفهم ما تقول ، وأى شيء تكون قواعد الموسيقى ، هل ظننت الموسيقى نحواً له قواعد وأصوله ؛ أنت تقصد أمراً لا وجود له . فنظر أبو المعلى إلى الخليل نظر المبتهج . وأضاف أبو رافع يقول : بل هو أمر لا يمكن أن يكون . قال الخليل : إسمع ما أقول اذن ، وأنبئني بعدها برأيك . قال أبو رافع : لا تتعب نفسك بالبحال يا هذا ، ومن تكون أنت حتى تجد ما لا يمكن وجوده . قال أبو المعلى : ألا تعرف الخليل بن أحمد سيد النحاة واللغويين بالبصرة ؟ قال أبو رافع : بلغني بعض الحديث عنه ؛ ولكنى أراه اليوم قد ضل سبيله ، فليرجع إلى نحوه ولغته . قال الخليل : دعنا من كل هذا يا شيخ واسمع ما أقول . ثم شرح له ما وجد فصار المغنى يهز رأسه ، ويرفع منكبيه ، ويحملك فيه ؛ ولما فرغ الخليل استوى أبو المعلى في جلسته ، وانتظر امتداح المغنى لصاحبه وإعجابه وإطنابه وإذا هذا يقول : لعل فيما ذكرت شيئاً من

الصحة والاكتشاف ، ولكن ماذا يستفيد المغنون والعازفون من ذلك ، أتزداد يدهم مهارة في التوقيع ، أم صوتههم جودة في الغناء ؟ احتفظ بهذا لنفسك ، ولا تتعب في إذاعته .

ما سمع أبو المعلي هذا القول حتى كاد يرتدى على رقبة أبي رافع فيدقها ، أو إلى وجهه فيوسعه لطما ، ولكنه نظر إلى الخليل فوجده يبتسم هزواً ، ويشير إليه بأن يقوم معه ، فخرجا . قال أبو المعلي : لانهزن يا صاحبي ، فهذا رجل لا عقل عنده ولا شعور ، وافرح بما أوتيت ، فقد اكتشفت ما لا يعرفه أصحاب الصنعة ، وهذا عطاء من الله لم يمنحه غيرك .

عاد الخليل إلى بيته ، وهو لا يدري أمسرور هو أم حزين . لقد اكتشف سر الموسيقى وأصلها ، وليس من الصعب عليه أن يصنف فيها كتاباً يضبط أنواعها ، ويميز أصنافها . ولكنه حزين لأن اكتشافه لم يلق تشجيعاً من أصحاب الفن ، وهو إنما ينفع هؤلاء .

ما مضى عليه طويل زمن حتى أخرج كتاباً في الموسيقى أسماء تراكيب الأصوات . واتصل بالمغنين ، وصار يعلمهم أصول موسيقاهم وتفرعاتها ، ويهديهم سبيل إيجاد نغمات جديدة ، ويتعلم

منهم قنهم ، ويتتبع صناعتهم ، حتى لها بذلك عن النحو واللغة .
 وكان يستصحب أبا المعلى إلى هذه المجالس ، فيضحك أبو المعلى
 ويصفق ويطرب . أما الخليل فكان يكثر التأمل ويردد اللحن
 وينشد الأناشيد ، ويقطعها .

ومضى عليه زمان ، وهو يستصحب لوحه إلى مجالس المغنين
 فيرسم عليه رموزاً لا يفهمها أبو المعلى ، ويسأله عنها فلا يجيبه .
 وتغير بعض الشيء طبعه ، فصارت تصدر عنه أصوات غريبة ،
 وأناشيد عجيبة ، يديرها على لسانه المرة بعد المرة ، فيفرح لها
 حيناً ، ويفتم لها تارة أخرى ، وأبو المعلى مستغرب طليعة
 متشوق إلى معرفة أمره حتى كانت ليلة انطلق فيها المغنون إلى
 الشعر الجاهلي والأهازيج القديمة يغنونها طربين . والخليل عاكف
 على لوحه ، يرسم عليه ، ثم ينطلق إلى الغناء معهم ، ثم التصفيق
 ثم الضرب بقدمه على الأرض ، ثم يعود إلى لوحه ، فيسوده
 برموزه ؛ وقد استوى أبو المعلى في جلسته ، وصار يراقب حركاته .
 فيزداد عجبه ، ويقول في نفسه إن الرجل قد أصبح مغنياً ، بعد
 أن كان لغوياً ، وما هو ذا الآن ينطلق في هذا الفن ، ولا بد أنه
 أخرج فيه جديداً وفيما هو يفكر هذا الفكر ، وجد الخليل يقف

ويصرخ قائلاً : الله أكبر ! الله أكبر ! السكون في الشعر هو كالسكون في الموسيقى . ثم أقبل على أبي المعلي ، ومسكه من كتفيه وهزهما وقال : إسمع يا أبا المعلي ! السكون في الشعر هو كالسكون في الموسيقى . وكان المغنون قد بلغوا آخر نشيد لهم فصار الخليل يردد معهم وينشد ، ثم يعود إلى أبي المعلي فيقول السكون في الشعر كالسكون في الموسيقى ، فيضحك أبو المعلي كالأبله ، وينشد معه ، ولكنه لا يفقه ما يقول ، حتى أتم المغنون إنشادهم ؛ فقاد الخليل إلى مكان منزله وقال : أفهمني ما معنى قولك : « السكون في الشعر كالسكون في الموسيقى » قال : إن لهذا حديثاً طويلاً . قال أبو المعلي : حدثني به ، فقد شوقني إلى معرفته .

قال الخليل : ألا تذكر ليلة من ليالي شتاء السنة الماضية حين اجتمعنا بطائفة من الأعاجم ، نقباحث أمر الشعر العربي وغيره من الأشعار ، فقال الأعاجم : إن الشعر العربي لا ضابط له ولا أصل ، مع أن شعر اللغات الأخرى بخلاف ذلك ، قد اتضحت أصوله ، وعرفت مقاييسه ، فلا سبيل إلى الخروج عليه . فرد عليه أحد الحاضرين من أبناء العرب قائلاً : إن

الشعر العربي أصله الطبع ، ومقياسه الأذن . فقال الأعجمي :
ما قولك إذا فسد الطبع ، واختل مقياس الأذن ، ماذا يحصل
بالشعر يومئذ ؟ فأجابه العربي بما لم يفتح الخالف .

قال أبو المعلى : أنا أذكر ذلك ، وأذكر أنك كنت صامتاً
لا تتكلم . قال : نعم كنت أزن القولين ، فأجد الأعجمي مصيباً
فيما يقول ، كنت أقيس أمر الشعر إلى أمر اللغة والنحو فأقول :
سوف يكون من أمر الشعر العربي في يد الأعاجم ما كان من
اللغة العربية عندهم ، فقد أخطأوا فيها ولحنوا ، واضطربت على
ألسنتهم ، حتى تصدى لها النحاة ، فوضعوا قواعد للأعاجم
وضبطوا بها خطأهم . وهذا الشعر أصبح اليوم أداة يستعملونها ،
فيخطئون في أوزانه ، ويضطربون في تعديله ؛ وما يدرينا لعل
من العرب من يفسد طبعهم ، فلا يستطيعون التمييز بين شعر
وشعر ، وقد يضيع عليهم الأمر فلا يهتدون إلى الحق . كذلك
لبثت صامتاً . ومنذ يومئذ وأنا لا أفأفكر في هذا الأمر . ولما
فتح الله على "بمحصر أصول الأنعام والتواقيع" ، شعرت بأن وضع
مقاييس للشعر أصبح أمراً ممكناً . فالشعر ينشد مع الموسيقى
ويرافقها ، فيجب أن يكون له مقاطع كمقاطعها ، لتتحد المقاطع

حين الإنشاد ، فتصح المراقبة ؛ وإذن فمن الممكن إيجاد مقاطع
للشعر ، حتى إذا وجدت عُرفت المقاييس الشعرية ، ووضع
ضابط الشعر . منذ ذلك الحين كنت ترانى أسير إلى المغنين ،
وأنشد معهم ، وأقابل تقاطيع الموسيقى بألفاظ الشعر ؛ بل كنت
أذهب الحين بعد الحين إلى سوق القصارين ، وأزن نقراتهم
ببعض الأناشيد ، وأنشد الشعر على تلك النقرات . وكان أعظم
شئ يلفت نظري هو نهاية المقطع الموسيقى ، أى السكون ، وهو
ما يقابل النون فى (تن) و (تتن) و (تتن) حتى تجلى لى هذه
الآلية أن ما يقابل ذلك أحد شيئين فى الشعر ، إما الحرف الساكن ،
وإما حرف المد . وحرف المد فى النحو — كما تعرف — يستبدل
بالحرف الساكن ، والحرف الساكن به ، فهما سواء . فالسكون
فى الشعر هو السكون فى الموسيقى . والشعر كالموسيقى حركة
وسكون ، وبالحرف المحرك والحرف الساكن ينتظم وزن الشعر
ويضبط . ولم يعد لدى الآن إلا أن أرجع إلى أشعار العرب ،
فأقطعها معتبراً الحرف الساكن آخر المقطع ، وأماثل بين المقاطع ،
فيكون من نتيجة ذلك ضابط للشعر العربى . قال الخليل ذلك ،
وأمن النظر فى أبى المعلى ليرى أثر هذا الكلام فيه ، فوجده

ما كنا صامتا . فقال له : مالك لا تنبس بينت شفة ؟ قال : إن ما تذكره بعيد عن فهمي ، عظيم على ذكائي ، ولا أدرى ما تقول ؛ على أني واثق من أنك وجدت أمراً لو نجح لأنيت بما يفوق قواعد النحو وأصول اللغة . فهل أنت على ثقة من حسن النتيجة ؟ قال الخليل : الحق إني كمن وجد مفتاح دار لا يعرف ما فيها ، وقد يجد فيها ما يطلبه . وقد لا يجد ؛ وقلبي يحدثني بأن فيها ما أطلب .

انكب الخليل على عد مقاطع الشعر وحصرها ، وهو أمر صعب مشنت طويل ، ولكنه لم يكن على ذكائه بمسير . وجده بعد إعمال الفكر ، فتم له كشف ميزان الشعر .

الفصل العاشر

ماذا حدث بعد ذلك . يا للمصيبة ! هذا عبد الرحمن ابنه يخرج من الدار ، وهو يلطم خديه ، ويركض على غير هدى ، ويصيح بكلام غير مفهوم ، فيستوقفه الجيران ، ويهدثون روعه ، ويسألونه عما به . فيقول وهو يبكي ، ويجهش بالبكاء : جن أبى ، جن أبى . ثم يعود إلى بكاء أمر يفتت الأكباد : لقد جن أبى ، قد ضاع عقله . يا للهول يا للمصيبة ! ويصرخ أحد الجيران : وا أسفاه عليك يا خليل . إن كثرة الذكاء تقرب المرء من خلل العقل ؛ ماذا تنفعك اليوم تلك النباهة وذلك الذهن الوقاد ؟ ويصيح الغلام : وا أبتاه ! وامصيبته ! . وتتفطر نفوس الحاضرين أسمى وحزناً . ويقول بعضهم : كفى بنا اضطراباً ، هلموا ننظر فى الوجه الذى نسفه به . هلموا ادخلوا الدار . ويدخلون الدار ، فلا يزون من الخليل إلا قامته ؛ أما رأسه فقد أخفاه فى فوهة بئر عنده . ويسمعونه يصرخ أقوالاً لا معنى لها ، وهو يكررها ، ويقتربون

منه فيرون رأسه وقد تدلى في البئر منقوش الشعره . ولا يحس الخليل بوجودهم بالرغم من ضجعتهم وكثرتهم . فيتقدم إليه أحدهم ويقول : يا أبا عبد الرحمن إصحب إلى نفسك ، وأخرج رأسك من البئر ، فليس ذلك بنافعك شيئاً . فيرفع الخليل رأسه ، وينظر إليهم نظرة المتعجب المختار . ثم يقول وقد ساءه التفافهم حوله وتكاثرهم عليه : « ما لكم يا هؤلاء ، وأى خطب جلل جمعكم ؟ » فيقولون : هدىء باللك يا أبا عبد الرحمن ، ولا تسوءك رؤيتنا . فيهدىء نفسه ، ويقول بلطف : هل دهاكم أمر أستطيع دفعه عنكم . فيقولون : لا ! لكننا نريدك على أن تهدىء أعصابك ، وتريح نفسك . فيقول : ولكنى بأهدأ حال وأحسن راحة ؛ فأخبروني بأمركم ، فيتشجع أحدهم ويقول : إن ابنك ظن أنك جنت ، فخرج يصيح ويستغيث ، فجئنا لنطمئن عليك . فيعض الخليل على نواجذه ، ويحار كيف يفسر لهم الأمر . ثم يعول أن يكشف اختراعه ، فقد آل إلى نتيجة التامة التي كان يتوقعها . فيقول ببساطة مزجت بشيء من البهجة : كثر ما خشيت على الشعر العربي ، فقد وجدت الأعاجم يقدحون عليه ، ورأيت من الشعراء المولدين من يدعو إلى الخروج على

منهاجه ، فعرفت أنهم سينتهون إلى وزنه فينتقدونه ، ويطلبون
تعديله ، ويدعون أنه لا يقوم على أصل ، ولا يرجع إلى ميزان ،
وقد يقولون إنه رغبة قوم بدو لا أذن موسيقية لهم . خشيت
ذلك ، وكنت مؤمناً بأن الشعر العربي كالنحو ، له قواعده
وضوابطه ، بل أصله أقوى في ذلك من النحو . فصرت أعمل
الفكر لإيجادها ، وعكفت على ذلك حيناً طويلاً حتى وفقني الله
وما كنت عليه الساعة هو اختبار صحتها ، كنت أقابل قواعدي
على مقاطع الشعر ومقاطع الشعر تظهر واضحة في الصدى الذي
تحدثه البئر . يقول ذلك ويحيلهم إلى يوم معهود ، يكشف فيه
عن تلك الأصول بالمسجد الجامع بملاً من الناس ، فيعجب
الجيران ويسر ذوو العلم منهم . وينظر الخليل إلى ابنه نظر الأسف
الحزين ، يأسف على أنه منى بولد لا عقل له ولا فهم عنده ،
ويحزن على ذلك الولد الذي أضاع خير ما في الحياة بضياع عقله ،
ثم يقول بلهجة الحزين الأسف مخاطبه :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذلتك
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك

هرع العالمون والمتعلمون إلى المسجد الجامع لسماع شرح ذلك

العلم الجديد الذى أبدعته قريحة الخليل ، وكانوا بين مصدق ومرتاب . أيقنوا أن الخليل لا يدعى هراء ، فليس أصدق منه بالبصرة ، ولم يعهد عليه الكذب قط . وعجبوا من الشعر العربى يضبط بعلم وقواعد ، فمتى كان الشعر - وهو يخرج من الشعور ، ويمت إلى الذوق - ينطوى على ميزان واضح وأصول ثابتة ، وظن أكثرهم أن الخليل واهم ، وأنهم سوف ينقضون أقواله ويعلمون حججه . ولما التأم المجلس افتتحه الخليل باسم الله ، ثم صار يحمد الله على أن وفقه بهذا العلم الجديد الذى دعاه بالعروض ، لأنه يُعرض الشعر عليه ، فإن كان صحيحاً تبينت صحته وإن كان مكسوراً ظهرت علة . ثم قال :

لقد كشفت عن سر الشعر العربى وضبطه ، فلن يقع فيه خلل بعد اليوم ، وهؤلاء المولدون الذين أطلقوا أنفسهم لقول الشعر ، وليس عندهم من الطبع العربى والأذن العربية ما يخولهم الصحة ، لن يستطيعوا بعد اليوم أن ينقضوا ميزان الشعر العربى ، وأن يدعوا أنه ليس له ضابط ، وأن من حقهم ألا يتقيدوا بأقوال رواة الشعر وحفاظه ، أولئك الذين ينسبونهم إلى الخروج عن ميزان الشعر ، دون أن يفسروا لهم سبب خروجهم . أيها

الناس ! لن يستطيع إنسان بعد اليوم أن يقول غير الشعر فيدعى أنه شعر ، لأن سبيل اقناعه بخطئه أصبح بسيطاً غاية البساطة . أيها الناس ! لقد برهنت أن العرب الذين ينسب الشعوبيون إليهم الجهل والخلل يتكلمون عن سجية لها أصولها المضبوطة ، لا يخرجون عنها ولا يحيدون . ألا أيها العرب اعتزوا بشعركم ، وفاخروا الأمم بموسيقاه وحسن ضبطه .

قال ذلك وأخذ يشرح مادته بأسلوب سهل وطريقة واضحة . وكان يعرف أن المجتمعين لن يفهموا من شرحه إلا قليلاً ، فكان لا يطيل عليهم وكان يؤكدهم أن تفريعاته وضبطه تسرى على كل الشعر العربي جاهليه وإسلاميه ، والناس ينظرون إليه مفتونين مختارين . إنه كلام حسن صحيح ، ولكن الدعوى كبيرة . وما كاد أبو عبد الرحمن ينتهي من شرحه ، حتى قام من الحاضرين رجل فقال : إن كان كلامك حقاً ضبطت لنا بميزانك معلقة امرئ القيس ، فبادر الخليل إلى وزنها وإخراجها وضبطها ، فصاح الحاضرون : الله أكبر . وأسرع أحدهم فأعطاه بيتاً من الشعر يطلب حصره ، فحصره له الخليل ، ثم انهالت عليه الأشعار وهو يحصرها . وتكاثر الناس وتوسعت

الحلقة ، وكانت صيحات الاعجاب تتعالى ، ولا يتمالك المجتمعون من تكبير الله على ما رزق البصرة من هذا العلم المعجيب بهذا الرجل الفريد . وبعد اختبار واسع لهذا العلم ، انقضت الحلقة ، والتف الناس حول الخليل يهنئون به علمه وإبداعه . وخرج عالمان من الجامع ، وهما يتحدثان بهذا الاختراع . قال أحدهما : « هل صدقت ما سمعت أذنالك ، ووعت عيناك ؟ » فأجاب : « إني من أمرى لنى عجب وحيرة . الحق أن ما أتانا به أبو عبد الرحمن توفيق من الله عز وجل ما بعده توفيق . إني رأيت المتكلمين حين يضعون قياساً ما ، يطرون فرحاً به ، ويصفونه بالتوفيق والالهام ، ووجدت النحاة إذا اكتشفوا قاعدة نحوية ، ظنوا أنهم بلغوا ذروة العلم ، فصنفوا وطربوا ، وألفت أصحاب الرأى والفقه ، إن صدق قياسهم ، شادوا به وأذاعوه وصفقوا له ، وشاهدت أصحاب كل علم يسمعون وراء اكتشاف بسيط يفتخرون به . أما صاحبنا أبو عبد الرحمن ، فهو يضع علماً كاملاً مستوفياً ، ثم يقف بين الناس على غاية من التواضع ، فيشرح لهم علمه ، فلا تخرج منه كلمة نخر أو أعجاب ؛ وكأنه يشرح أقوال غيره ، حتى إذا اعترض معترض ، لم تأخذه الحمية ، ولم يلهبه التحمس ، بل

أجاب ببساطة ودعة ، فمنع الاعتراض . يا أخى إن هذا الرجل فوق الرجال ، ولم ير الراعون مثله . قال الآخر : « إني بحشت قبل موعدنا اليوم فى أقوال الاخباريين والرواة عما يصح أن يتخذ مشرعا يشرع منه الخليل ، فوجدتهم يذكرون بعض صفات القافية ، ويسمون نوعاً أو نوعين من البحور ، دون أن يذكروا شيئاً عن أوزانها . وذلك كل ما قالوا عن ضوابط الشعر ، وإذا بالخليل يبدع مادة واسعة متسقة ناضجة كاملة لعلم رفع به العرب رؤوسهم . لقد سمعت بعلم ليونان يدعونه بالمنطق ، مرفون به صحيح الكلام من باطله ، وقوى الراى من ضعيفه . ضع هذا العلم أرسطاطاليس ، وتوالى تلاميذه على تكيله توسيعه . غير أن صاحب العقل السليم يدرك ضوابط هذا العلم بن نفسه ، ويعرفها بالقريحة ، ويقرها دون جدل . وأرى صاحبنا أبا عبد الرحمن قد فاق أصحاب المنطق وبذم ، فلم يكن لعقل يهذى إلى خطأ الشعر ، ولم يكن أحد يستطيع البرهان على صحة وزن بيت أو خلاف صحته . يجتمع الرواة فيقولون إنه صحيح ، فلا نستطيع أن نفهم منهم لماذا ، ويأتى الخليل ، فيضع لك قواعد تامة يجربها أمامك ، فتقنع بها عقلاً وتذوقاً . ألا إن

الخليل وحيد الدهر وغاية العلماء « قال الآخر : « حكى لي رجل تزوج إلى جيران الخليل ، فأقام عندهم ، قال : سمعت الخليل يقرأ القرآن شطراً كبيراً من الليل ، فسألت عن ذلك أهل زوجتي ، فقالوا ما عرفناه إلا كذلك ، وإنه ليغيب في حج أو غزو فنستوحش له . كذا ذكر لي ، وإني لأرى أن الله أنعم عليه من العقل والتقى والصدق ما لم ينعم به على أحد ، اللهم إلا على أنبيائه المخلصين .

أنت الأيام التالية ، والطلبات تنهال على الخليل في تعليم علم العروض . ولم يمتنع الخليل عن الإجابة . وقف نفسه حيناً طويلاً من الدهر على تعليم علمه وإفهامه للناس . وكان ممن تردد إليه ، يتلقى العروض الأصمعي الراوية المشهور ، فشرع الخليل يشرحه له ، والأصمعي لا يفهم ما يقول . وأعاد الخليل الكرة ، فامتنع الفهم أيضاً على الأصمعي ، فلم يئأس الخليل ، وعأوده في الأيام التالية ، ولكن الفهم استعصى عليه ، حتى يئس الخليل ، وتأذى بتعبه الذي يلقاه من التعليم ، دون أن يكافأ بفهم الطالب ، وكان يعز عليه أن يبعده عنه ، ويقطع تلقينه إياه بقول لعل الأصمعي يتألم منه . ولا ريب أن غير الخليل كان يصعب عليه

إيجاد وجه أديب في التوقف عن التلقين ، أما هذا العبقرى فما أسهل ما يجد طريقه إلى ذلك : قال له : يا أبا سعيد ! كيف تقطع قول الشاعر :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
فأنشأ الأصمى يقطع هذا البيت دون جدوى ، حتى إذا أتى به الخليل على آخره ، استأذن وخرج ، ولم يعد بعدها إلى العروض . ما أطف هذه الإشارة وأرقها ، وما أسرع فهم الأصمى بالإشارات وأثقله بالعروض .

لم يقف الخليل عند اختراع هذا الفن ، بل بادر إلى جعله سبيلاً لإبداع أنواع من البحور والشعر لم يعهد لها العرب . لقد امتلك مفتاح الشعر العربى بعروضه ، فصار حرياً به أن يفتح به آفاقاً من الشعر مجهولة . استخدم العرب من التفاعيل الثمان خمسة عشر بحراً ، مع أنها تعطى أكثر من ذلك بكثير حين تجمع وتركب . وكذلك صار الخليل يركب منها بحوراً جديدة ، ويخرج بها شعراً من وزن جديد . أخرج قصيدة على فَعِلُنْ أربع مرات ، فقال :

سئلوا فأبوا فلقد بخلوا فلبئس لعمرك ما فعلوا

أبكيت على طلل طرباً فشجاك وأحزنك الطلل
وعمل قصيدة على فعلن أربع مرات فقال :

هذا عمرو يستعفى من زيد عند الفضل القاضى
فأنهوا عمراً إني أخشى صول الليث العادى الماضى
ليس المرؤ الجانى أنفاً مثل المرء الضيم الراضى
فاستخرج المحدثون من هذين البيتين وزناً سموه الخلع ،
وخلطوا فيه من أجزاء هذه وأجزاء هذه . وما أحدث
الاندلسيون من الموشحات ، وما يحدث فى المستقبل من أوزان
جديدة ، تلام روح العصر ، وتدرج مع موسيقى الجليل ، يرجع
فضله إلى الخليل ، فقد اكتشف مفاتيح الشعر ، وأطلق للشعراء
استخدامها بما يقتضيه ذوقهم وتخرجهم قريحتهم . والعروض فى
ذلك كالنحو ، ألا ترى أن علم النحو والصرف أخرج كلمات
والفاظاً وجموعاً لم تنقل عن العرب ، ولم تسمع منهم ، كذلك
العروض أخرج وسيخرج أوزاناً تتفق مع الذوق العربى ،
وتجرى على أصوله ، وتنبتق من تفاعيله .

الفصل الحادى عشر

هذا الرجل كان يقامى مضضاً شديداً ، وضيقاً قوياً . خاف
 بوه عليه بستاناً ، فصار يعيش بغلته ؛ ولكنه كان كريماً ،
 سرعان ما تبدد الغلة ، ويضرب الفقر غائلته ، فتصبح زوجته
 طالبة الإنفاق عليها ؛ ويصبح ابنه متوجعاً ؛ وكانت الزوج
 والولد يحملان الأب مالا طاقة له به من الاعنات والإرهاق ؛
 وهو صبور حمول ، حتى كان يغلق عليه بابه ، ولا يستقبل
 أحداً خشية إطلاع الناس على همومه ؛ وقد ذكر ذلك لتلميذه
 النضر بن شميل فقال : إني لأغلق على بابى ، فما يجاوزه همى .
 وأصبحت البصرة ذات يوم ، وإذا بخيول مطهمة تجتاز
 شوارع البلدة ، فخمة تلفت النظر ، وعليها فرسان أنيقون ، يرتدون
 البسة فارسية زاهية . ويتسارع الناس إلى رؤيتهم ، ويتساءلون
 عن أمرهم ، فيقول قائلهم : « إنهم من الأهواز وأيم الله ، فقد

رأيت أصحاب الأمير هناك ، وهم يرتدون هذا الضرب من اللباس .
ولا جرم أنهم أتوا يحملون هدية إلى أميرنا .

وتسير الفرسان وراء دليل يشق الطريق أمامهم ، ولا يلبثون
أن ينحرفوا عن قصر الأمير ، ويتجهوا وجهة أخرى ، حتى
يدخلوا حي الخليل بن أحمد ، ويقربوا من بيته . فينزل الدليل
مسرعا ، ويبادر إلى باب الخليل ، يطرقه طرقا مستعجلا ،
يشير به إلى عظم ما أتى به . فيخرج ابن الخليل عبد الرحمن ،
ويتأمل الدليل والفرسان والخيول ، فيصيبه الوجوم ؛ فهو لم يكن
يرى بين زائري والده إلا متعممين ومتطيلسين . ويعجل الدليل ،
فيقول له : « هيا أخبر والدك أن أمير الأهواز بعث إليه رسولا
من كبار أصحابه » . فيدخل عبد الرحمن على والده ، وكان يلقي
درسا على طلابه ، ويقول له مسرورا مستعجلا مرتبكا : « قم
يا أبتى ، فقد أتانا الخير ، وذهب الفقر . هذا رسول أمير فارس
يأتى بأبهة عظيمة إليك موفدا . وقد رأيت من خيوله وتابعيه
ما لم تر عيني قبل اليوم » . قال الفتى ذلك متوقفا لقوله أثرا
عظيما عند والده . غير أن هذا لم يبد كبير اهتمام ، ولم ينهض ،
بل قال : « دعه يا بني يدخل إلينا » ؛ فنظر عبد الرحمن إلى

والده بدهشة عظيمة وخيبة أكبر؛ ثم لم ير بداً من تنفيذ أمر والده ، فخرج يقول للدليل ومن معه : أهلاً بكم ، أدخلوا بترحاب ؛ فينزل الرسول متثاقلاً ، وقد خاب ظنه بحسن اللقاء ومزيد الحفاوة ، ويدخل داراً بسيطة متواضعة ، فيزداد عجباً ؛ وقد كان يعتقد أن من أرسل إليه رئيس من رؤساء المدينة كبير . وينتهى إلى مجلس الخليل ، فيلتقاء هذا بالبشاشة والترحاب ، ويدعوه إلى الجلوس وأصحابه ؛ ثم يعود إلى درسه ليتمه ، فيرى له الرسول من هيبة العلم ووقار المجلس ما يدفعه إلى أن يطرق الرأس باحترام ، حتى ينتهى الدرس .

أما عبد الرحمن ، فيقف إلى الباب ، وقد شده بصره ، وهو يتنقل بين ملابس الفرسان المزركشة وسيوفهم اللامعة ؛ ولا يمتد نظره بعيداً ، حتى يرى أحد الفرسان ، وقد ألقى بين يديه بصندوق مرصع ، فيتساءل عما فى هذا الصندوق ، وينطلق به الفكر إلى سوق البزازين حيث رأى لباساً شديداً أطلال النظر إليه ، وتمنى أن يكون لوالده من المال ما يسعف بشراء ذلك الثوب .

يفرغ الخليل من الدرس ، فيلتفت مرحباً بضيفه مرة أخرى ،

يؤانسه ويسأله عن حال صاحبه ، فيقول الرسول : « إن مولاي
الأمير سليمان بن حبيب المهلبى — أعزه الله — الذى تجمعك
بالقراية به قبيلة بنى أزد ، قد أقر على فارس والأهواز ؛ تلك
الأصقاع الكبيرة ذات الخيرات العظيمة التى فيها كانت خزانة
كسرى وعاصمة ملكه ؛ وقد أقام مولاي الأمير فى قصر عظيم
فخم ، وحفت به الأمراء والقواد والفرسان ؛ واجتمع إليه العلماء ،
وجلس على بابہ الشعراء . وقد بحث عن أديب يلزم مجلسه
ويناديه ، ويؤدب أولاده ويعلمهم ، فلم ير أليق بذلك منك .
وقد أرسلنى لأحملك إليه مكرماً معززاً ؛ ولم ير مولاي الأمير
— أعزه الله — أن يوفدنى وهولاء الفرسان دون هدية ؛
فأنعامه غزيرة ، وخيراته عميمة ؛ ويلتفت إلى الفارس الموكل
بالصندوق ويقول : اقترب بما معك ، فيرفع هذا صندوقه ،
ويضعه أمام الخليل ويفتحه ، فيقول الرسول : هذه مائة ألف
درهم ، أرسلها إليك مولاي الأمير على سبيل الهدية المستحبة ،
وقليلها كاف لتجهيزك إلى حضرته على خير مثال . »

نظر عبد الرحمن إلى الدراهم ، وهى بيضاء ناصعة تلمع أمامه ،
فسال لعابه ، وانفجرت عيناه ؛ وبهر بها تلامذة الخليل ،

وعلت بعضهم ابتسامة الفرح بما الخليل حرى بأن يهبهم منها ،
وهو الذى يشاطرهم ماله مهما قل .

أما الخليل فينهض متثدأ ، ويذهب إلى خزانة فى البيت ،
ويخرج منها شيئاً صغيراً يحمله فى يده ، ويعود به إلى مجلسه ،
ولا يستوى قاعداً حتى يقول : «أرأيت هذه الكسرة من الخبز ،
إنها زادى الوحيد ، ولكنها كافية لسد رمقى ، وما دام عندى
منها ، فلست بحاجة إلى سليمان . أما هذه الدراهم الكثيرة ، فعند
الأمير من الشعراء من هم بحاجة إليها ، فليردها عليهم » .
ما سمع عبد الرحمن ذلك ، حتى اضطرب واكفهر ؛ وأراد أن
يتكلم ، ولكن الكلام وقف فى حلقه ، فصار يتأتى بما لا يفهم .
أما الرسول فما صدق ما سمع ، وعاد إلى الخليل يستفهم منه ،
فقال له : لقد كفانى الله بهذا الخبز عن الرحلة إلى أميرك ، وهذا
جوابى . وكان ذلك كلاماً لا التباس فيه . فاحمر وجه الرسول ،
وأدرك أنه أخفق فى مهمته إخفاقاً مريعاً ما كان يتوقعه ،
فحاول أن يقنع الخليل ، فصار يصف له قصور فارس وجمال
بنيانها وحسن طبيعتها وكثرة خيراتها ولطف الأمير وظرف
حاشيته ، دون أن يثنى الخليل عن عزمه ، حتى عرف الرسول

أن لا أمل بإقناعه، فأمر الفارس الموكل بالمال أن يرفعه ؛ فأغلق هذا الصندوق ، وانقطعت الفضة عن اللعان ، فكادت عين عبد الرحمن تخرج من صدغيه معها . وحمل المال وأخرج من البيت ، والخليل لا يعير ذلك التفاتاً . ثم إن الرسول تقدم إليه ، وقال له : بماذا أجيب مولاي الأمير ، وماذا أقول له نقلاً عن لسانك ؛ فقال :

أبلغ سليمان أنى عنه في سعة وفي غنى غير أنى لست ذا مال
سخا بنفسى أنى لا أرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال
هذا ما تنقله إليه بالحرف الواحد . فاستأذن الرسول ، وهو يتعثر بنخبة أمله ، وخرج يقول : ما هذا إنسان كما رأيت .

نظر طلاب الخليل إلى أستاذهم نظرة حيرة ، فيها العجب والإجلال والأسف والحسرة . إن شيخهم لأعظم الناس وأحرام بالإجلال ، وما فعل أمامهم أكبر من أن يصدق . وأطرقوا الرأس بين يديه ، وانتظروا أن يأذن لهم بالخروج ليذهبوا ، فيتحدثوا بالبصرة عن أعجب ما رأوا وسمعوا ، وعن أجل الناس وأزفعهم .

أما عبد الرحمن ، فانطلق إلى أمه يخبرها بما وقع ، وهو لا يستطيع كتمان بكائه . فما سمعت كلامه ، حتى أقبلت على زوجها مكفهرة الوجه مشجبة الأعصاب ، وقالت ، والكلام يتعلم في فيها : ماذا أصابك يا صاحبي ، حتى رفضت مالا أتاك يسعى إليك . أجننت أم صرت تفضل الموت على الحياة . أنسيت أنك أب وزوج ، وأنتا لا نجد من الطعام إلا ما لا يسد حاجة . أنسيت ثيابك المرقعة التي تصغرها منزلك في أعين الناس . هذا ولدك يبكي كل يوم على كسوة يطلبها ونعل يبغيه ، وأنت تعد وتوجل ، وتنتظر الفرج وتؤمل ، حتى إذا جاءك الفرج ، ضربته برجلك ، ودفعته بيدك . ثم طفقت تبكي وتشق ، وجلس ابنها إلى جانبها يعلو عويله عويلها . ونظر الخليل إليهما نظر المشفق الحزين ، فسالت دمعة من عينه أسفاً على نفسه منهما ، وعليهما من عدم فهمهما لقصده .

وخرج إلى شأنه ، وما ذهب بعيداً حتى ألقي صديقه أبا المعلى ، فحياه تحية من يريد أن ينسى ما حدث . ومشى معه إلى حيث يجلسان عند قصر أويس ، ينعمان النظر بجمال الطبيعة وما استقر بهما المجلس ، حتى قال أبو المعلى : لقد دوت البلدة

بنخب الرسول الذى أتاك من عاهل الأهواز ليحملك إلى فارس ،
 ومعه مائة ألف درهم . وقد ذكر الناس بالدهشة ردك الدراهم
 ورفضك الرحلة ، فهل صحيح ما يدعون ؟ قال : نعم ، كان ذلك .
 فقال أبو المعلى : فعلت ذلك يا أبا عبد الرحمن ، وأنت أحوج
 الناس إلى المال ، وأحقهم به ؛ فما معنى فعلك ، وهل يأمرك
 زهدك أن تدع أهلك يرتعون فى الفقر ؟ قال الخليل : « كفاك
 يا أبا المعلى . هذا كلام من لا يفقه ما يقول . أتعذلى على أنى
 رفضت مالاً لم أفعل شيئاً أستحقه به ، أو تلومنى لأنى أربأ
 بنفسى أن أكون عبداً لأمير ، يظن العظمة فى الحكم والعز
 للمال والقوة لصاحب الجند . أترانى عائشاً فى القصور ، منقطعاً
 إلى تعليم غلام أو غلامين للأمير ، رهن الإشارة ، عبد الأمر .
 أترى هذا العلم الذى أحله يصير ملكاً لأمير ، يأخذ منه ما يشاء
 ويدفع منه ما يريد ، يجعله سبيلاً إلى التفكه ، وواسطة للتسلية
 يحصره لديه ، ويضن به على غيره . يا صاحبي ! لست أزهد فى
 المال لأنى أكره النعمة ، ولكنى أريده خالصاً من العبودية ،
 صافياً من دنس التحكم ، حقاً لا ممارسة فيه ، وأجرأ لا بد منه .
 يا صاحبي ! لن أبيع على وعزتى وعقلي بالمال مهما كثر ، ولن

أكون عبداً إلا لخالقي». قال أبو المعلى : «يدهشني أن يكون في الناس من ينظر إلى الحياة نظرتك». قال : بل أحق بك أن تعجب من أنهم لا يسرون في الدنيا سيرتي. قال أبو المعلى : إن الذي يؤسفني أنك قلت شعراً للأمير تقطع فيه عليه سبل استمراره على إرسال الراتب الذي خصك به منذ زمان مكافأة لك على علمك. قال : إنه إن منعه لم يمنع عزيزاً.

مضت الأيام ، والخليل يزداد فقراً إلى فقر ، حتى أتى الحين الذي يصل فيه راتب سليمان ، فبلغ الخليل أن الأمير ساءه جوابه ، فأمر بقطع الراتب عنه وسار الخبر في المدينة ، فصار الناس يستفسرون من الخليل عن جلية الأمر ، فيخبرهم بحقيقة ما حصل ، وينشد لهم شعراً يخاطب به سليمان قائلاً :

إن الذي شق في ضامن لي الرزق حتى يتوفاني
حرمتني مالا قليلاً فما زادك في مالك حرمانى
وسارت الرواة تحمل هذا الشعر وتنشده ، حتى بلغ الأهواز ، وطرق سمع الأمير ، فأقامه وأقعدده ، وخاف على شهرته من رجل يحترمه الناس ويبجلونه . ويرفعون قدره ويصدقونه ، فكتب إليه يعتذر ، وأمر بأن يضعف راتبه ؛ فلم يزد الخليل هذا العمل

احتراماً لسليمان ، وعرف قصده فقال :
 وزلة يُكثر الشيطان إن ذكرت
 منها التعجب جاءت من سليمان
 لا تعجبين لخير زل عن يده
 فالكوكب النحاس يسقى الأرض أحيانا
 فوبخه أبو المعلى على قوله هذا ، وقال له : لقد استغفر سليمان
 لذنبه ، فما بالك تقسو عليه . فقال يعنى نفسه :
 صلبُ المهجاء على امرئ من قومنا
 إذ حار عن سنن السبيل وحادا
 أعطى قليلاً ثم أقلع نادماً
 ولربما غلط البخيل فجادا
 فقال أبو المعلى : وإن تعف وتصفح هو أقرب للتقوى . قال
 الخليل نعم القول الذى تعظنى به ، وسكت عنه .

الفصل الثاني عشر

سما مقام الخليل بين الناس في البصرة وغير البصرة ؛ وصار الناس يقصدونه من القريب والبعيد ، يستفيدون من علمه ، ويخبرون ذكاه ؛ وهو لا يمتنع على إنسان ، بل يمشي في كل الوجوه ، ويتواضع مع الكبير والصغير . وكان أهل البصرة يتخذونه صاحباً وأباً وراشداً ودليلاً ، وكان هو يهتم لهمهم ويفرح لفرحهم .

حدث أن مات كحال كان يعمل للناس دواء ينفعهم لغشاة البصر ، وتضرر الذين كانوا يستعملون هذا الدواء ، وصاروا يطلبونه ، فلا يعرفون له اسماً ، ولا يدرون تركيبه . ولما كثر تشكيهم من ذلك ، اجتمعوا يتداولون أمرهم ، فقال قائل منهم : لم يعد لنا إلا أن نلجأ إلى أبي عبد الرحمن الخليل ، فهو بذكائه وعلمه قد يجد لنا هذا الدواء ، مهما كانت أخلاطه كثيرة نهلها بنا إليه لنقص عليه قصتنا . وأجمعوا أمرهم ، وذهبوا إليه ،

فشكروا ما يجدون ، فساءه حالهم ، ولم يكن كحالا ليصف لهم دواء غيره ، فماذا يفعل ؟ قال : هل كان للدواء نسخة ذكر بها أخلاطه : قالوا : لا . إنما كان يحضره لنا بنفسه . قال : وهل تعرفون الآنية التي كان يجمع فيها الأخلاط ؟ قالوا : نعم ، وأحضروها له قال راوى القصة محمد بن الفضل — وهو من أعيان الناس — جعل الخليل يشم الإناء ويخرج نوعاً نوعاً ، حتى عرف خمسة عشر نوعاً . وسواء أصدقنا أنه وجد هذه الأنواع بهذا الأسلوب أم لم نصدق ، فقد وجدها بهذا أو بغيره ، مما يكفله ذكاؤه وجدده ؛ ثم سأل العطارين أن يصنعوا دواء يجمع هذه الأخلاط فصنعوه . فإذا هو الدواء المطلوب ، فسر المحتاجون إليه ، وصاروا ينتفعون به كما كانوا يفعلون قبل وفاة الرجل . ثم وجدت نسخة في طيات كتاب من كتبه ، ووجد فيها ستة عشر خليطاً ، ووجد أن الخليل أغفل منها خليطاً واحداً .

استعظم الناس هذا الأمر ، وتحدثوا به زمناً طويلاً ، وسارت الركبان بأخباره ، ولعلمهم زادوا فيه شيئاً أو أشياء . وصار

الرجل يشار إليه بالبنان في كل حضر أو سفر ، فيقال : هذا الخليل ، أذكى الناس وأصفاهم ذهنًا وأحسنهم قريحة .

أما هو فكان يعاني من ولده الأمرين ؛ كان ولده أحق متخلفاً لا يفهم ، وعنيداً لا يستكين .

جاء شاعر يزور الخليل وجلس عنده ، وكان عبد الرحمن حاضراً ، وعرضت حاجة لل خليل فقال لابنه : قم وأحضرها . فقال ابنه : لا أقوم . فقال : إذا لم تقم فاقعد . قال : لا أقعد . قال : فأى شيء تصنع ؟ قال فأى شيء أصنع . وضحك الشاعر ، وقال : إن لك أن تتعزى فابنك ليس وحيداً في ذلك . إن لى امرأة تشابهه ، وقد قلت فيها شعراً ، ثم أنشده :

سكتُ فقالت لِمَ سكتَ عن الحق

وقلتُ فقالت من دعاك إلى النطق

فأومأتُ هل من حالة بين ذا وذا

فقلت : وذا الإيماء أيضاً من الحق

فلم أر لى إذ حلت الغرب راحة

من الشر إلا بالهروب إلى الشرق

فلما أتيت الشرق ألفيتها به

وقد قعدت لي منه في أضيق الطرق

فضحك الاثنان ، وضم عبد الرحمن شفته السفلى إلى العليا
وأبرزهما إلى الأمام احتجاجاً وأتقة .

الفصل الثالث عشر

سار ذكر الخليل في العالم ، وتفاخر العرب به على العجم وبلغت أخبار ذكائه بلاد الروم ، وتحدث بهذا عربى في مجلس ملكها؛ فقال له الملك ، ان أصدق ما ذكرت حتى أمتحنه، وفكر رويًا في الأمر ثم قال : أكتب إليه كتابًا بلغتكم ، وضع فيه ما تشاء ، وسأرسله إليه لأرى هل يفهم مافيه ، وقد غيرت بعض شكله . فكتب إليه العربى كتابًا ، وأعطاه الملك إلى رجل ينقله بنصه العربى في الحروف اليونانية القديمة التى لا يعرفها إلا القليل من المتبحرين فى اليونانية ، فنقل إليها ، ثم أرسله الملك إلى الخليل ، ووافى رسول الملك أبا عبد الرحمن وقال له : هذا كتاب بالعربية من فلان العربى إليك ، فاقراه ، وإنى بانتظار الجواب لأرحل به . فأخذ الخليل الكتاب ، وأعطاه إلى أحد الحاضرين ليفضه ويقرأه ، فأخذه هذا ، وظل يمعن فيه وهو يقول : إن هذا الكتاب ليس بالعربية أبدًا ؛ فيقول الرسول : بلى إنه بالعربية . ويتناول الخليل الكتاب ، فيدرك

أن في الأمر امتحاناً له ، فيقول للرسول : انتظرنى حتى أكتب
الجواب ، ويخلو بنفسه مدة ، ويخرج وقد نقل الكتاب إلى
الحروف العربية ، ويقرأه على أصحابه ، ثم يريهم جوابه
بالحروف اليونانية القديمة ، ويقرأه عليهم بها ، فيبهتون ويبهت
الرسول ، ويقولون : متى كنت تعرف اليونانية يا أبا عبد الرحمن ؟
فيقول لم أكن أعرفها ، وإني لا أعرفها حتى الساعة ، فيزدادون
تعجباً وحيرة ، ويقسمون عليه إلا فسر لهم الأمر ، فيقول : لقد
خلوت بنفسى ، وفكرت في أمر الكتاب ، وقلت لقد زلق
الرسول ، وادعى أنه بالعربية ، وكان حقاً عليه ألا يقول ذلك
لأن معرفتى بأنه بالعربية مفتاح السر ، إذ لا يبقى على إلا أن
استخرج لبعض الحروف اليونانية منه ما يقابلها بالعربية
فينكشف الكتاب . قال كيسان ، وهو أحد تلامذته المخالفين :
أوتعد استخراج مقابل بعض الحروف اليونانية بالعربية أمراً
هيناً ، وأنت لا تدري من هذه الحروف شيئاً ؟ قال الخليل :
ويحك يا كيسان ! ولماذا أعطانا الله العقل والفكر ؟ أليس
لنستفيد منهما ، فنخرج بهما من المأزق التى لا ينكشف أمرها
بدونهما . قالوا : فماذا فعلت ؟ قال : قلت بنفسى إن صاحبنا

العربي في بلاد الروم قد كتب ولا ريب كتاباً على عادتنا وشرعنا،
فبدأه بكلمة نبدأ بها كل كتاب وهي « بسم الله الرحمن الرحيم »
فأخذت أول الكتاب ، وصرت أقابل حروفه بحروف « بسم الله
الرحمن الرحيم » حتى استخرجتها ، فعرفت من الحروف اليونانية
عشرة حروف مما يقابل حروفنا ، فصرت أتتبع الحروف التي
عرفتها في الكتاب ، فأعثر على كلمة أكثر حروفها مما أعرف ،
فاستنتج بالفكر بقية حروف الكلمة ، وقد عرفت أكثرها ،
فيزداد عدد الحروف التي أعرفها . وكذلك استخرجت كل
الحروف ، وكشفت الكتاب ، ونقلته إلى الحروف العربية ،
وليس ما فعلته بالأمر العجيب .

ويذهب رسول الروم إلى مولاه بجواب الخليل ، فيستحضر
الملك الكاتب بالحروف القديمة ، فيحل له الجواب ، فيجده
موافقاً للكتاب ، فيعلوا الرجل في عينه . ويستفيد الخليل من
هذه التجربة ، فينقطع زمناً لوضع كتاب في الأشياء المعماة
والرموز التي يصح أن تتخذ سبيلاً إلى تقوية الذكاء والاستنتاج
فيضع كتاب المعنى ، وينتشر بين الناس ، ويستفيد منه
كيسان ، ويبرع في حل الألغاز .

الفصل الرابع عشر

كان الإبداع عند الخليل عملاً لا بد له منه ، يقضى فيه أوقات فراغه . ويتحدث به إلى نفسه ، ويطلق لفكره العنان ، وكأنه كان عنده راحة من مضض الحياة ، وسلوة يجلو بها النفس ، وأكاد أقول ألهية يلهمي بها حدة ذكائه ، ويظهر منه فائض نبوغه . كان يسعى وراء الأمور التي لا بد فيها من عبقرية ومزيد فطنة ، فينكب عليها شغوفاً بها ، يستطلع منها آفاقاً جديدة لذكائه المفرط .

ها هو ذا يجلس إلى رجلين عكفا على رقعة أمامهما ، ينقلان قطعاً خشبية عليها ، فيتأمل هذه الرقعة ، ويسألها إيضاح أمرها ، فيعجبان منه كيف لم يعرف أنها الشطرنج ، أجمل ألهية يلعب بها ، وأحسنها تمريناً للذكاء ، وأصدقها اختباراً له ، فيقول إنه سمع عنها الشيء الكثير ، وأعجب بمخترعها الفارسي الذي أبدع شيئاً عظيماً من العدم ، ولكنه لم يتسن له أن يطلع عليها . فيشرع

الرجلان يتسابقان في تفسير حركة قطعها ، فيسر سروراً عظيماً ،
ويقول : ما أحسن ترتيبها ، وأعجب سيرها ، وأدهش حيلها .
لكن ما لهذه اللعبة حوت حيوانات القتال جميعاً ، ونسيت
أصبرها على العطش وأقواها على السير وأمدتها للمقاتل : نسيت
الجل الذي هو رفيق المحارب العربي وخادمه . قالوا إن مخترعها
لم يفكر فيه ، وأياً كان ، فهي كاملة تامة بترتيبها ، والعبرة بالجوهر
لا بكيفية الوصول إليه . قال : إني إن لعبت بها يوماً فلن ألبها
خالية من الجل ، فهو عندي أليق بها من كثير من تماثيلها .
قال ذلك ، ثم انطلق ذاهباً . ولعله كان يقول هذا على سبيل
الفكاهة والتمثيل ، غير أنه ما تجاوز بعيداً ، حتى انطلق فكره
في ميدان الشطرنج وفي حركة أبطاله ، وامتد به التفكير ، فإذا به
ينطلق خارج البصرة ، فلا يشعر بنفسه إلا وهو في الصحراء ،
ولم يردّها . وكان لا يزال فكره مشغولاً بالشطرنج ، فيقعد على
رمال الصحراء ، ويخط عليها مربعاته ، ويتناول أحجاراً يمثل
بها الفئتين المتصادمتين ، ويوجههما للقتال ، ثم يتخيل الجل
بينها يعمل عمله ، ويؤدي مهمته . ولا يزال منطلقاً في بحر فكره
حتى يأتي المساء ، ويسود الصحراء بعض العتمة ، فيخف عائداً

إلى بلده ، وهو لا يدري أنه ابتعد عنها كثيراً . ولا يزال سائراً حتى يلقى الظلام ثوبه المعتم على البرية ، ويكون الخليل قد وافى ضواحي البصرة ، لكن أمامه درباً طويلاً عليه أن يقطعه حتى يدخلها . ويخشى أن يلقى في طريقه سبعاً من سباع البرية ، فلا يقوى عليه ، وهو أعزل حتى من العصا . ويذكر أن في أحد جانبي الطريق صومعة لراهب انقطع فيها للعبادة ، فيجد أن خير ما يفعل الالتجاء إلى ذلك الراهب أثناء الليل ، ويكشف عن طريق الصومعة فيجده غير بعيد ، فيتجه فيه ، حتى يبلغها بعد أن يتساق ساعاً إليها ، يبعده عن خطر الطريق ، فيطرق بابها ، فتفتح كوة من أعلاها ، ويظهر رأس الراهب منها ، وهو يقول : من أنت يا هذا ، وماذا تريد ؟ فيقول : أنا الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وأمنيتي إليك السباح لي بقضاء الليل عندك ، فقد وافاني ظلامه ، وأنا في طريقى إلى بيتى . وينظر الراهب إليه فاحصاً ، فيجد رجلاً شعث الرأس ، مرقع الثوب ، فيقول : أنى لك يا هذا أن تكون الخليل بن أحمد ، والناس يزعمون أنه واحد في العلم ، وليس في العرب مثله . قال : إن الناس يزعمون ذلك ، وهم مغالون . ولكن ما الذى يدعوك إلى أن تتهم صدق فى أنى

الخليل ؟ قال إن ميماءك الفقر والتقشف ، ولا أرى الخليل —
وهو من يدعون — يتزيا بزيك . قال الخليل : عجيب من راهب
مثلك ، يلبس المسوح ، ويرى الزهد والامتهان لأمر الدنيا ،
أن يستكثر على الخليل — وهو يظن فيه الخير — احتقار
الظواهر وامتهان التجمل . عجيب منك أن تريد كالطاوس ،
يزهو بريشه وألوانه . قال الراهب : لن يخذعني كلامك الجميل
البليغ هذا ، فأصدق أنك الخليل . لأنني عرفت في العرب طلاقة
لسان وحسن بيان ، يتفق بهما العالم والأمة منهم ، وما أصدق
أنك الخليل إلا بعد امتحانك . إني سأثلك عن أمر أستدل به
عليك ، قال الخليل : سل وعجل . قال : ألسنا نستدل على
الغائب بالشاهد ، فلا نحكم بوجود الغائب ، إلا إذا كان حاضر
يشهد به قال الخليل : أجل ، فالإنسان لا يعرف الخفى إلا بآثر
شاهد يدل عليه . قال الراهب : أحسنت ، الخليل يقول إن الله
تعالى ليس بجسم ولا عرض ، فهل ترى شيئاً بهذه الصفة ، حتى
تدعى هذه الدعوى : إنك لم تر قط ، أجبتني عن ذلك جواباً
مقنعاً ، حتى أصدق بأنك الخليل . قال : لك ذلك ، أنى استدلت
على الله تعالى بأفعاله الدالة عليه ، ولا مثل له ، وفي المشاهد

المعروف ، المعترف به ، المسلم بأمره ما يؤكد ذلك ، تعالى الله
عن المشابهة . ما قولك في الروح التي فيك وفي كل حيوان ،
ألا تحس بها ، وترى أثرها ، وتقر بوجودها ، وتدعوها باسمها ،
وتحاول تهذيبها ، ويبكي الناس لخروجها من عزيز عندهم ،
وينخشون زوالها عنهم . أتدرى أين مستقرها ، وكيف هي حياتها
وصفتها ، وما هو جوهرها . هل تشعر بشيء يخرج من الإنسان الذي
يموت ، وأنت تقول إنها تفارقه حين يفقد الحياة ؟ إنك لا تدرى
ولا تحس بشيء من ذلك ، ثم تؤمن بوجودها ، وتدعى أنها
ليست جسماً كالذي تشاهده . وبعد ، فهذا شاهد تسلم به ،
واستشهد به في دعواي ، فافتح لي الباب لأدخل . قال الراهب
ذلك أول سؤال عرفت به شيئاً من حالك ، وعندى سؤال آخر ،
ينبئني بالكثير عنك ، وإنه لتابع للأول : الست تزعم أن الناس
في الجنة يأكلون ويشربون ولا يتغوطون ؟ قال : نعم ، قال :
متى وأين رأيت أناساً بهذه الصفة ، وأي شاهد لك على هذا
الزعم ؟ قال الراهب ذلك ، وابتسم ابتسامة الواثق من أنه أوقع
خصمه بما لا قدرة عليه . فأتى الخليل هنيهة ، ثم رفع رأسه ،
وقال : الشاهد في ذلك قريب عجيب ، وهو أنت وأنا وكل

الناس . قال الراهب : يا للعجب ! أتهدر أم عجزت ؟ قال : كلا ، وما أقول إلا حقاً ، فأنت وأنا وكل إنسان مر علينا قريب من حول أكلنا فيه وشربنا ولم نتغوط . قال الراهب : متى وأين ، قل ولا تعقد . قال الخليل : إن الإنسان قبل أن يرى هذا العالم يبقى تسعة أشهر في بطن أمه ، وهو يتغذى منها دون أن يتغوط ، وقد مررت بهذا الدور . ومررت ، ومر كل الناس . أفيعد هذا الشاهد من بيان ؟ قال الراهب : أحسنت أحسنت يا خليل ، صدق من قال إنك أذكى العرب وأوحدهم . قال الخليل : هل آن لك أن تفتح الباب يا هذا ، فقد أظلم الليل ، وتعبت قدماي . قال الراهب : لن أدعك تدخل حتى تبين لي الشاهد في أن نعم الجنة لا ينقضى مع أن أوله موجود ، فإني ما أحسب أني رأيت أمراً له أول ، إلا وهو ينقضى ويزول . قال الخليل : لن أذكر لك شاهد هذا الأمر ، إلا إذا وعدتني بفتح الباب فوراً بعد الجواب ، فقد أطلت . قال : لك ذلك ، أي وربي . قال : هل تعلمت الحساب ؟ قال : نعم ، قال : عد لي . قال : ما شأن ما نحن فيه والعد ؟ قال : لن ترى الجواب إلا به . قال : واحد اثنين ، ثلاثة ، ومضى في العدد . قال الخليل : هل تستطيع أن

تقف على عدد ليس بعده آخر ؟ قال : إني مهما عدت فهناك رقم أعلا منه . قال : كذلك نعيم أهل الجنة ، له أول وليس له آخر . فبادر الراهب إلى الباب وفتحه ، واستقبل الخليل بين ذراعيه ، وقال له ، إنك لأوحد الدهر حقاً ، فادخل ولك عندي خير ضيافة .

لم يقطع الخليل ما حصل معه هذه الليلة عن إكمال الفكر بالشطرنج ، فما هو بالرجل الذي يكل ويمل في عمل قصده . وكان على من يقصد الاختراع في الشطرنج أن يلزم لاعبيه ، ويشاهد لعبهم ليستخرج من المشاهدة غايته . ولكن الخليل رجل فكر أكثر منه رجل مشاهدة وتمرين ، فسبيل المشاهدة والتمرين لا يقود بعيداً إلا بالصدقة ، أما العقل ، فسبيله أقرب ، وخياله أوسع ، ومادته أغزر . وبه وجد الخليل مكاناً للجلين من طرفي الرقعة يلعب بهما ، واستحسن الناس ما وجدوه ، فلعبوا بالجلين حيناً من الزمن طويلاً ، ثم تركوها في حين لعل القرينة خفت فيه ، والفكر مل التأمل .

الفصل الخامس عشر

ما زال الخليل منقطعاً إلى العلم وتعليمه ، ولم يكن يكتفى بأن يعلم المعارف والعلوم ، بل كان يريد في الوقت نفسه أن يعلم الأخلاق الحسنة والطباع الجيدة .

دخل أبو محمد اليزيدي على الخليل ، فوجد مجلسه منعقداً حافلاً ، والخليل جالس على طنفسة صغيرة في صدر المجلس ، والمهابة ناطقة على وجهه ، والناس بين يديه في حياء منه وإجلال له . فصار أبو محمد يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، يبحث عن مكان يجلس فيه . فالتفت الخليل فرآه على هذه الحال ، فقال : إلى يا أبا محمد ، فنظر أبو محمد ، فما وجد مكاناً فارغاً بقربه ، فأشار إليه بطرف خفي : ليس لي مكان عندك ، وسأجد فراغاً أجلس فيه . ولكن الخليل عاد يقول : ههنا عندي يا أبا محمد . فقال هذا وقد ضاقت حيلته : أخاف أن أضيق عليك فقال الخليل : هلم ، فاقترب منه ، وهو منقبض ، فأخذ الخليل بمضده ، وقربه منه ، وأجلسه بمحذائه ، وقد وسع له ، ثم قال : « إن الدنيا بمحذافيرها تضيق عن متباغضين ، وإن شبرا في شبر

لا تضيق عن متحايين » ، فجلس أبو محمد ، وقد سره وصف الخليل له بالصدقة والحب . وجرى هذا الكلام مجرى المثل . وانطلق الخليل يتكلم عن العلم والعلماء وفضاهم . فقال أحد طلابه : أليس المال أفضل من العلم ، إذ يجلبه ويسببه ؟ قال : كلا ، ما هو أفضل منه ، والعلم هو الذي يجلب المال ، ولا شيء يعدل العلم ويفضله . فقال : ولا الملوك والأمراء ؟ قال الخليل : لا الملوك ولا الأمراء ولا غيرهم يفضلون العلماء . قال : فما بال العلماء يزدهجون على أبواب الملوك ، ألا يعنى ذلك أنهم يلجأون إليهم ، ويعتقدون فضاهم وتقدمهم ، ثم ما بال الملوك لا يزدهجون على أبواب العلماء بل يدعونهم إليهم بإشارة منهم لهم ، قال الطالب ذلك ، وقد شعر بأن حجته أقوى من حجة أستاذه ، وصار ينتظر ما الخليل قائل ، وإذا بهذا يقول : لقد عرف العلماء حق الملوك وواجبهم نحوهم في نصحتهم وهدايتهم ، فسعوا إليهم ليرشدوهم ويعلموهم ، وجهل الملوك حاجتهم إلى العلماء وحقهم ، وظنوا أنهم خير منهم ، فلم يسعوا إليهم ، فكان من ذلك خراب لأمر كثيرين منهم ، لم يسألوا أهل العلم فيما لا يعلمون . فأتى الطالب وانقطع ، وكتب الطلاب على الواحهم هذه المحاور ، ثم انقض المجلس بهذا أو بمثله .

الفصل السادس عشر

لم يكن للخليل هوى غير هوى العلم ، اللهم إلا تعلقه ببازي
كان ينفق عليه ما يفضل عن قوته ، وكان كثيراً ما يخرج فيصطاد
به ، ويقوى بدنه وينشط فكره ، وقد يمتد به الصيد برفقته ،
فيقضى أياماً وهو بعيد عن منزله .

عاد مرة من صيد استغرق معه أمداً ، فوجد الناس
يتراكمون إليه ويخبرونه أن الشعراء بشوا عليه العيون
والأرصاد ليعثروا عليه ، وهم ما يزالون يبحثون عنه . وكان
الخليل حكمهم ورئيسهم ، فما استحسنه من أقوالهم اشتهر
وحاز القبول ، وما لم يستحسنه سقط . فعجب الخليل لأمرهم ،
وظن أنه وقعت بينهم منافرة يريدون رأيه السريع فيها . وما
وافى البيت حتى رآهم ينتظرونه ، فحيام فاستقبلوه بلهفة ، فسألهم
عن أمرهم ، فقالوا مدحنا الأمير جعفر بن سليمان بن علي العباسي
بالقصائد التي كنا أعدناها قبل مسيرك ، ووافقت عليها ، فسمعها
ولم يتقدم إلينا بالجائزة ، بل ماطلنا بها ، فضاقت الأمور بنا ، وحاجتنا

إلى المال ما تعرف . فقال الخليل : أعطوني رقعة أكتب لكم
 كتاباً عليها إليه . فأعطوه ما كتب عليه كتابه ، ولم يقرئهم
 تلك الرقعة ، بل ختمها ووجههم بها ، فأوصلوها إلى الأمير ، ف
 أنهى قراءتها حتى أمر لهم بجوائز حسنة ، وزاد في إكرامهم
 وتشوقوا إلى معرفة ما بالرقعة ، فالفوها بالديوان ، وإذا فيها .

لا تقبلن الشعر ثم تعقه	وتنام والشعراء غير نيام
واعلم بأنهم إذا لم ينصفوا	حكموا لأنفسهم على الأحكام
وجناية الجاني عليهم تنقضى	وحكومهم تبقى على الأيام

فعرفوا بذلك من الخليل حسن رأيه فيهم ، وقوة تسلطه على
 الأمراء .

الفصل السابع عشر

اكتسب الخليل الرياسة بين العلماء والشعراء بحق ، وكان من رضى عنه حاز المنزلة العليا عند الملوك ، وأصاب الغنى . أما هو نفسه ، فما برح فقيراً . كان تلاميذه يعيشون فى القصور ، ويمرحون بالخز والديباج وهو فى بيت من خشب ، وثوب مرقع ليس فى طياته فلسان . وكان مظهره ولين طباعه وتواضعه تخدع ذوى النظر القصير ، فيستطيون عليه بما لا يصح أن يجرى أمامه وإذا هو يميدهم إلى حظيرتهم الدنيا بكلام يجرى مجرى المثل . ها هو ذا فى مجلس ملتئم تطرح فيه عليه الأسئلة ، فيفيد بأجوبته ، وهذا هو رجل من فزارة جاهل أحق غنى يدخل فيأخذ مكانه من المجلس ، وكان قد سمع كثيراً عن الخليل وعن ذكائه ، فيرى شيئاً لا عهد له به ، فيجلس منصتاً . وإذا برجل يتقدم إلى الخليل بسؤال ويقول : سيدى الشيخ ! ما معنى قوله تبارك وتعالى : رب ارجعون . فيطرق الخليل ، ويبعث عن

الجواب فلا يجده ، فيقول : سألتوني عن شيء لا أحسنه ، ولا أعرف معناه . فاستحسن الناس منه تلك الصراحة ، ولكن الفزارى يستقبح هذا الجواب ، وتبدو على وجهه دلائل امتهان المجلس ، وينتبه الخليل إلى ذلك فيسأله على عادته مع الحاضرين مسألة ليصرفه بها عن موقفه ؛ فيبطله بالجواب محاكاة بالخليل فيعيد هذا السؤال عليه ، فيتضاحك الفزارى ، فينتظر الخليل انقطاع ضحكه ، ثم يقول لجلسائه : الرجال أربعة ، فرجل يدرى ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فاسألوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك غافل فأيقظوه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى ، فذلك جاهل فعلموه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ، فذلك مائق جد أحق فرفضوه . ثم يلتفت إلى الفزارى ويقول :

ومن أعجب الأشياء أنك مائق وانك لاتدرى بأنك لاتدرى وينظر أهل المجلس إلى الفزارى ، وقد تصيب العرق من جبينه فشرع يبحث عن الانصراف وهو يتعثر بأثواب خجله . وجاء رجل آخر يمتحن الخليل بمسألة ، فجعل الخليل يفكر وأطال التفكير، وأبطأ في الجواب، فأعجب الرجل بنفسه، وقال للخليل

متفائراً متباهياً : لم تُكثر الفكر والتأمل ؟ فليس في هذه المسألة من الصعوبة ما يستدعى إطالة النظر ، فقال الخليل : قد عرفت سألتك وجوابها ، وإنما فكرت في جواب أسرع لفهمك ، فأعبت نفسي بما قصدت إراحتك به . فحجل الرجل وانصرف .

عرف معظم الناس جليل قدر الخليل وحسن رأيه وقوة بصيرته ، فاعتمدوا عليه بما يخرج عن حد علمه وأبواب اختصاصه ؛ فكان بذكائه وقريحته يفيدهم بأكثر مما يستفيدون به من أهل الاختصاص . من ذلك أن الأمير عباد المهدي اتخذ أرضاً أراها للخليل ، واستشاره بغرسها ، فأمعن الخليل نظره فيها وقال 'غرسها وستنبت بمشيئة الله كل شيء بهيج . فعمل بمشورته وغرسها ؛ ورأى أصحابه — ممن كانوا يعرفون الفلاحة — هذه الأرض ، فلاموه على غرسها ، وخوفوه من الخسارة ، فصار ينتظر نتيجة أمرها ، وإذا هي تأتي بكل شيء حسن ، فحمل إليها الخليل ، وهو مبتهج بها ، فسر الخليل بما فيها ، وقال شعراً فيها من أجود ما قيل في البساتين ومواضع الأشجار ، وأشار إلى لوم اللأئمين فيها فقال :

ترفعت عن يد الأعماق وانخفضت

عن المعاطش واستغنت بسقيها

فالتف بالزهر والريحان أسفلها

ومال بالنخل والرمات أعلاها

وصار يحسده فيها أصادقه

ولأنهم لام فيها قد تمنأها

الفصل الثامن عشر

كان الخليل يحب النصيح والرشد ، ويدعو إليهما ، وينحو نحوهما ، وآل به الأمر في ذلك أن عقد مجلساً في المسجد الجامع ، يعظ فيه الناس ويهديهم سواء السبيل . وكان يكثر في مواعظه من عدم الاحتفال بالدنيا وزخارفها ، ويدل على حقيقتها وصواب أمرها ، فيقول من ذلك الحكمة التي تسجل ، والرأي الذي يبجل . كان ذات يوم قد جلس مجلس الواعظ ، والتف الناس حوله ، واكتظ المجلس ، والسكوت سائد ، وصوت الخليل يخرج مستقيماً متئداً ، ليس فيه دليل بفخر القائل واعتزازه بنفسه ، ولا استكانة المتصوف الغارق في بحر التذوق . كان يقول : ما أغرب أمر الدنيا وأعجب شأنها ؛ الدنيا أشياء مختلفات اختلفت وتقاربت وتجاذبت ، الدنيا أشياء مؤتلفات اختلفت وتباعدت وتضاربت ، الدنيا أضداد متجاورة ، وأشياء متباينة ، وأقارب متباعدة ، وأبعد متقاربة . ألا من أراد أن يكون فيها سعيداً ، وبها رشيداً ،

فليعتبر ذلك في نفسه ، وليعمل على أن تكون منزلته عند ربه منزلة أفاضل عباده ، وأن يكون رأى الناس فيه وسطاً لا سوءاً ولا جمالاً كثيراً ، وأن يكون رأيه في نفسه سيئاً بحيث يحسب نفسه شر النفوس . بهذا تتم له الراحة فيرضى الله عنه ، ولا يسوؤه من الناس تقبيح أمره ، ولا يخذعه منهم مديح وثناء ينفخان شذقيه ويوردانه مورد العطب ، ثم يعرف نقصان نفسه فيعمل على تحسينها ، ويدرك قبيح أمره فيجهد نفسه في تجميله ، فيبقى لنفسه مصلحاً ، ونحو العلي جاداً .

أيها الناس ! ألا بحسب امرئ من الشر أن يرى في نفسه فساداً لا يصلحه ولا يقومه ، ألا إن هذا لشر عظيم ، ألا إن العاقل غير ذلك ، فانه إذا علم بفساد نفسه علم بصلاحها . أيها الناس ، أقبح التحول أن يتحول المرء من ذنب لم يتب منه إلى ذنب يشرع فيه ، فيكون قد عانى من أمره السوء تلو السوء . قال رجل في المجلس : لقد زهدتنا وأحسننا تزهدنا ، فهل لك أن تدلنا على معنى الزهد بأقصر عبارة نحفظها عنك ونتداولها نقلاً منك ؟ قال الخليل : الزهد ، هو أن لا تطلب الشيء المفقود حتى تفقد الشيء الموجود . وسأزيدكم رغبة فيه : انظروا لمن يجمع

لراء المال ولمن يخلفه ، إنما يجمعه لأحد ثلاثة ، كلهم أعداؤه ، إما
 لامراته التى توشك أن تتزوج فور وفاته ، فتلقى بأمواله بين
 دى زوجها الجديد ، وإما لزوج ابنته الذى ينتظر موته اللحظة
 بعد اللحظة ، وإما لزوج ابنه التى تتحرق أسى على انتقال ماله إلى
 زوجها لتستبد فيه . فماذا يكون أمر العاقل الناصح لنفسه من هذا
 أيؤثر هؤلاء على نفسه ، فيخلف لهم ماله ، أم يوزعه على الفقراء
 والمساكين ، ويجعل توزيعه زاداً لآخرته ؟ .

بينما كان الخليل يتحدث إلى الناس بذلك ، وهم آذان واعية
 رعيون دامعة ، إذا بشاب قد أخذ الجهل من نعومة وجهه ، ولعب
 الشقاء فى ثوبه ، فبرمه وقتله على غير المألوف ، يقف على الحلقة
 تبرما متجاهلاً . وما ينتهى الخليل من كلامه إلى الحد الذى
 سمعناه ، حتى يوقفه هذا الشاب الجاهل بيت من الشعر ينشده
 رافعاً صوته مشيراً بيده يقول :

وغير تقى يأمر الناس بالتقى

طبيداوى والطبيب مريب

ولم يدر هذا الجاهل المتعنت قدر الخليل ، ولا عرف أنه يفعل
 أكثر مما يقول ، فأراد أن يعكر عليه صفاء وعظه ، فتنسبه إلى

القول بخلاف ما يفعل . والتفت الناس متعجبين مستهجنين ،
 وحصل لفظ في الحلقة ، وكاد بعض المتحمسين للخليل ينهضون
 إلى هذا السفية ليؤدبوه ، ولكن الخليل أشار إليهم بألا يفعلوا .
 وقال : إسمع قولي يا بني واحفظه ، واليك هو :

اعمل بعلمى ولا تنظر إلى عملى

ينفعك علمى ولا يضررك تقصيرى

فسكت الشاب ، وعاد الخليل إلى موعظته ، وقد أعطى
 الحاضرين درساً فى الأناة والحلم والعقل ، لا يعادله تعليم بالكلام
 ولا وعظ بالحسنى .

الفصل التاسع عشر

أقام الخليل بالبصرة، فكان لا يخرج منها إلا لحج أو غزو .
 لي أن كبار الأمراء والولاة مازالوا يدعونه ، ويلتمسون حضوره
 إليهم ؛ وهو يأبى ذلك عليهم ، ولا يرغب فيهم . وكانت حاله
 زداد سوءاً ؛ فقد مرت أيام على البصرة سوداء ، قل فيها الثمر
 المحصول ، وضاق الحال بالخليل بما لا يحتمل ! ولكنه صبر
 ببر الكرام ، يتعزى بعلمه ، ويتسلى بيازيه وصيده . وأقبل
 وم ، وإذا بشائعة تسرى في مدينة البصرة ، يتناقلها الناس ،
 يضجون لها . قال قائل : لقد عزم الخليل أن يدع البصرة ،
 يرحل إلى خراسان ؛ قال آخر : هذا ما لا أصدقه ، فكيف
 ترك الخليل البصرة في شيخوخته ، وقد أبى أن يغادرها في شبابه
 كهولته . وإلى من يسير في خراسان ، وقد رفض كل مقدمة من
 مير وسلطان . قال الآخر : يقولون إنه راحل إلى الليث بن المظفر
 بن نصر بن سيار ؛ وانقطع الكلام ، فما كان أحد يعرف من

هو الليث هذا وما شأنه مع الخليل . وما مضت أيام حتى أذاع الخليل خبر سفره ، وذكر اليوم الذي سيخرج فيه . وحل اليوم الموعود ، واجتمع الناس لتشيع ابن البصرة وصاحب علمها ورئيس شعرائها ورافع اسمها . وكان عدد المشيعين ثلاثة آلاف رجل ما فيهم إلا محدث أو نحوي أو لغوي أو إخباري . وسار الناس مع الخليل في ركبته ، حتى بلغوا المربد ، فأوقفهم وخطب فيهم يقول : يا أهل البصرة ! يعز على والله فراقكم ، فأنتم أهلي وأصحابي وعشيرتي ، فيكم نشأت ، ومن لبانكم تغذيت ، أحببتكم قبل أن تحبوني ، ثم أحببتموني فازددت بكم حباً ، دعيت لفراقكم المرة بعد المرة ، فلم أعر الدعوة التفاتاً ، ومكثت بينكم أزداد حباً في بلدكم وارتباطاً بها ، وكانت هذه أيام سدّ فيه باب المعاش على ، وتضرر الأهل والولد ، وكثر اللوم ، فلم يثنني عن عزمي إلا دعوة من رجل صالح عالم ، قصد أن يوفر لي الراحة في الشيخوخة بأجر اتقاضاه على علمي ، فيسهل العيش على الأهل . والله يا أهل البصرة ، لو وجدت عندكم كل يوم كبلجة باقلاء ، ما فارقتم ، فوداعاً أيها الأصحاب ، ودعاء لي . فضج الحاضرون بالدعاء له ، وبكى كثيرون على فراق هذا الرجل الذي ما رأوا

إلا الخير ، والذي أنس إليه الكبير والصغير ، وأحبه البؤساء
 لمساكين . وبكى صفار الطلاب أكثر من غيرهم ، فلن يجدوا
 البصرة من يعلمهم مثله ، ومن يؤدبهم بأخلاقه ، ومن يعظمهم
 بعظته ، ثم سار ركب الخليل ، والناس يحيونه ويقولون : في
 مة الله أبا عبد الرحمن سر مجدوداً ، وليحفظك الله أنى حلت ،
 حيث رحلت ، فلن تلد الأمهات مثلك . فسار حتى غاب ركه
 ن الأَبصار .

وعاد أهل البصرة إلى ديارهم متثاقلين وقد فقدوا عزيزاً ،
 ودعوا غالياً ، وحرموا أنساً شديداً ومجالس عامرة . أما الخليل
 كان يسير مبتعداً عن البصرة ، وعيناه مغرورقتان بالدمع ، يودع
 روحاً كانت له مرتعاً ، ولعله منشأ ؛ فيها أبدع ما أبدع ووضع
 ن العلوم والمسائل ما وضع . وكان يتساءل : أيان تكون العودة إليها
 هل يتهيأ له بسفره الراحة التي ينشدها ، ثم إذا تهيأت له ، فهل يتهيأ
 سكره القريحة التي أعطيها في البصرة . هل أغلق باب تنبعاته فلن
 نلق جديداً ؟ وكانت هذه الفكرة الأخيرة أبعد الأشياء لخفقان
 به وترقق دموعه ! فهو لا يستطيع أن يحيا بدون الإبداع . فإذا
 كانت غير أرض البصرة لا تصلح لإمداد قريحته بزاد الفكر

والإبداع ، فلن يسعد بل يشقى . دارت هذه الأفكار في مخيلته ، فاضطرب باله ، وصار يبحث عن دافع يدفعها به ، ويقصدها عنه فلم يجد إلا الفكر بإبداع جديد يشرع فيه . وكأنه لم يشأ أن يترك البصرة إلا والأمل في الإبداع رفيقه ، فانطلق بالفكر ، وه يقول : لقد حصرت الأنعام ومقاديرها وأنواعها ، فضمت كلا إلى نوعه ، ثم حصرت أوزان الشعر العربي بتوفيق الله ، فما لم لا أفكر في حصر ألفاظ اللغة العربية ، بشكل علمي تام كامل لا يغادر منها فيه لفظ ؛ وما بدت هذه الفكرة له حتى طرد لها ، وامتلات نفسه بهجة ، وفارقه اضطراب نفسه . وما فتى طول الطريق يعمل فكره في هذا الاختراع العظيم ، حتى وافى خراسان ، وفي ذهنه منه بعض الخطوط .

تلقاه الليث بن المظفر بترحاب عظيم . وكان الليث من أحفاد نصر بن سيار ، ذلك الأمير الذي تنبأ بمصير الدولة الأموية فقال أرى تحت الرماد وميض نار . ويوشك أن يكون لها ضرا فان النار بالعوذين تزكى وإن الحرب مبدؤها كلا وكان الليث كاتباً بارعاً وأديباً حسناً ، ورث البلاغة والشرف من أهله ، وكان تقياً صالحاً حسن الطوية بارع الأخلاق ؛ أح

الخليل لما عرف عنه ، فرضى بصحبته ، ورحل إليها ، فوجد رجلاً
يعد رفيقه له شرفاً كبيراً وخيراً عميماً . وانقطعت عن الخليل
همومه في المعيشة ، وألغى رزقاً كبيراً في خراسان ، وانطلق للفكر
في مشروعه الجديد ، فوجد من حق صاحبه عليه أن يفاتحه به
ويسره إليه ؛ وكان يعلم أن ذلك يفرحه ، فقال له يوماً : إني
ما فتئت منذ خروجي من البصرة أفكر في أسلوب أحصر به
كلام العرب جميعاً ، فلا تشذ كلمة عنه ، فقال الليث : إن هذا
والله لعمل عظيم مفيد ؛ ولكن كيف يتيه لك حصر كل الألفاظ
وهي مشتتة في معان مختلفة ، لا يجمعها جامع ، وهبك حصرت
كل ما قالته العرب من ألفاظ في أسماء الشعر وأوصافه ، فمن أين
لك أن تحصر الأدوات التي تستعمل له ، والأدوية التي تنفعه ،
والأمراض التي تعلق به . قال الخليل : لا ، ليست تلك الطريق
التي تحصر الألفاظ ، فإن ذهن الإنسان بل الناس جميعاً لا تطيق
حصر الألفاظ التي استعملها العرب في مادة من المواد . وكل من
عمل كتاباً في الشجر أو النبات أو الخمر أو السباع ، لم يأت
إلا ببعض المسميات ، وغاب عنه منها عدد كبير . كلا ، لن يكون
هذا الطريق صالحاً ، إنما أفكر بحصر تام كامل لكل ما يمكن أن

يتركب من ألفاظ العرب . فنظر الليث إليه متعجباً ، وهو على ثقة من أنه مقدم على إبداع لم يسبقه إليه أحد . وإذا بالخليل يوضح له فكره فيقول : ثم تتألف الكلمة ؟ أليس من الحروف ، ثم أليس عدد الحروف محدوداً ؟ إنها في اللغة العربية تسعة وعشرون حرفاً ، إذا اجتمعت كونت الكلمة . ومن هنا يخطر على البال خاطر ، وهو ألا يمكن أن يعرف تراكيب كل حرف من الحروف مع الأخرى ، فالألف إذا اجتمعت مع الباء كونت أب ، وإذا اجتمعت مع التاء كونت أت ، ثم إذا ضربت هكذا ببقية الحروف أخرجت ألفاظاً عددها ثمان وعشرون لفظاً ، وكل لفظ من هذه يضرب بدوره مع حروف العربية ، فيخرج أبت ، ابث ، أبج وهلم جرا ، أفلا ترى أننا نستطيع أن نحصر الألفاظ التي أولها الألف بهذه الطريقة السهلة . ونعمل الأمر نفسه ببقية الحروف . لم يستطع الليث أن يفهم هذا الكلام على حقيقته ، فقد كان جديداً كل الجدة بالنسبة إلى ذلك العصر . على أن الخليل لم يقف عند هذا الإيضاح ، بل قال : ولكنني أبحث عن وجه أسهل من هذه الطريقة ، فأنا أرى بعد الحساب أنه يجب أن أكون على هذا الأسلوب (١٢٣٠٥٤١٢) لفظاً ، وهذا عمل

لا يحصره دفتر ولا كتاب ؛ وذلك ما يوقنى ويؤسفى . وأدرك
الليث أن المشروع من الضخامة بحيث لا يقدم عليه امرؤ . ولكنه
بعد الفكر ، وجده جليلاً مفيداً ، يجب أن لا توقف عن القيام به
صعوبة ، فاللغة العربية تظل بدونه عرضة للتشويه ، بحيث
لا يعرف الأعاجم : أنطق العرب بلفظ مطلوب أم لم ينطقوا به .
وإذا ادعى منهم مدع أنه مستعمل ، ولم يكن من كتاب يحصر
الألفاظ المستعملة ، كان سبيل إقناعه صعباً . ثم من أين يتأتى
للغة العرب رجل كالخليل يفكر بضبط ألفاظها وحصرها ؟ بقى
الليث يناجى نفسه بتلك الأفكار ، فيزداد شغفاً بهذا العمل ،
وأصبح فأسرع إلى الخليل ليستزیده من المشروع ، ولكن ماذا
ألفى ؟ وجد الخليل مستلقياً على الفراش ، والحمى تسرى فى عروقه
وهو يتقلب من الألم . فاضطرب الليث ، وبوغت بما لم يكن
يتوقع . كانت الحمى آنذاك شديدة الوطأة ، لا سيما على شيخ
كالخليل ، ليس له من الشباب ما يدفعها به . وفتح الخليل عينيه
وقال : لقد أصبت بما ترى ، فما عدت أستطيع أن أفكر يا كمال
العمل ، وقد تشتت فكري ، واضطربت أعصابي ، وسأجمع
شئنا مخيلتي ، فأشرح لك الأمر شرحاً ثانياً حتى تستوعبه

فتقوم به عني ، إذا أنا مت . قال الليث : كلا ، لن تموت
يا عزيزي ، ولن تصاب العربية بك ، فتفقدك فإنها أحوج
ما تكون إليك الساعة . قال الخليل : اسمع وقيد في دفترك .
لن يحصر من ألفاظ العربية إلا مصادرها . أما ما تبقى فيخرج
من المصدر ، ويعول عليه فيه . والمصادر لا يمكن أن تتكون من
أكثر من خمسة حروف ، فالحروف لن يضرب بعضها ببعض
أكثر من خمس مرات ، وفي هذا العدد تخفيف للعمل عظيم .
قال ذلك ثم أطبق عينيه ، وأصابته رجفة ، فصار الليث يسعفه
بما يستطيع ، واستدعى الأطباء وتلف لمعرفة نتيجة فحصهم له ،
فأخبروه أنهم لا يستطيعون معه شيئاً ، وأنه يجب أن يوكل إلى
العناية الربانية . وكان الليث متهمشاً منذ أمد بعيد للحجج في
هذه السنة ، وقد أعد العدة لذلك ، وحل ميعاد السفر ، فصار
يتلظى حسرة على ما هو واقع بالخليل ، يدعو الله آناً الليل
وأطراف النهار أن ينقذه . ولم يستطع أن يؤخر فريضته ،
وقد عزم أمرها ، فوكل بالخليل الأطباء ، وسار في طريق مكة ،
وتنفسه قلقة مضطربة . وطال به السفر كثيراً ، وما رجع إلى
خراسان إلا بعد زمن طويل ؛ فما كاد يشاهد من أهلها أولهم ،

تى سألته عن الخليل وعن صحته ، فأخبره بانقضاء الحمى وشفاء
 ربيض ، ففرح الليث فرحاً شديداً ، وأمر بتفريق مال عظيم
 كراً لله . وما وافى أبواب خراسان ، حتى ألقى الخليل بوجهه
 رضاء ولحيته البيضاء وسبائه الذكية ، فحف إليه يعانقه ، فألفاه
 شرح الصدر مبهجاً . وما عتأ أن وصلاً إلى الدار ، وأقبلت
 فود تحيى الليث ، وهو منتظر فراغها ليستفهم من الخليل عن
 سرّوعه . ولما انفرد به طفق الخليل يقص عليه سير عمله ويقول :
 ماجلنى الله بالشفاء ، فشكراً له وحمداً على آلائه ، ثم حبانى بما
 حمده عليه أكثر من حمده على الصحة ، لقد فتح لى باب إنجاز
 لفكر فى الأمر الذى تحدثت إليك به قبل سفرك إلى الحج ،
 وجدت أن ترتيب الحروف على طريقتنا النى الفناها (ا ب ت
 ث) يجعل المشروع صعباً غاية الصعوبة ، وهدانى الله إلى طريقة
 ، النطق أرتب بها الحروف بحيث إذا ضرب بعضها ببعض
 لمهت الألفاظ المستعملة جنياً إلى جنب ، واجتمعت الألفاظ
 لهمة بمكان متقارب . فأنت تعلم أن لكل حرف مكاناً فى الفم
 يحدث منه . فالعين والحاء والهاء والحاء والغين تخرج من الحلق ،
 يتحدث فيه ؛ والقاف والكاف تحدث فى الالة ، والفاء والباء

والميم تحدث في الشفة ، وهلم جرا . ولمكان حدوث الحروف أ
في إمكان تأليف لفظ مستعمل منها ، أو عدم إمكان ذلك
فأكثر الألفاظ المهملة ، إنما تتكون من حروف تحدث من مك
مقارب ، أو من الكلمات التي لا تدخلها الحروف الزوالية إل
تحدث من الأسنان . فترتيب الحروف على سياق نطقها يقرر
معرفة المهل من المستعمل وفصلهما بعضهما عن بعض . ووجدنا
بهدي من الله أن هذه النتيجة تستدعي أن تؤخذ تراكيب
الحروف لا بضرب كل حرف بالتتالي مع الحروف الأخرى ، بل
بأخذ تراكيبه مع بقية الحروف دفعة واحدة ، فإذا جمعت
مضاريب القاف مع العين استخرجنا منها قع وعق وهكذا .
وسأشرع بالعمل عما قريب ، وأراني أصبت النهج الصالح .
وسأدعو الكتاب كتاب العين . قال الليث وهو طروب : إنك
لأعجوبة الدهر ، فكيف تكشف هذه الأفكار ، وهي مخبأة
وما عهدنا بالمبدعين والمخترعين إلا مبتدئون يوحون الفكرة
حتى يحين الزمن . ، فيأتي غيرهم فيتمها . أما أنت أيها الشيخ
الجليل ، فقد حباك الله بما لم يرزق به غيرك ، حباك ببعد نظر وتنب
للمسائل وتدقيق لأصولها واستخراج لكنها ، فكان الأشياء

تنطق لك ، وتهديك إلى سرها ، فذلك الله بالعمر ، وجزاك الجزاء
الأوفى على خدمتك للغة الشريفة . وعكف الخليل على اختراعه ،
واستخرج تراكيب الحروف على الوجه السابق ، وميز المهمل من
المستعمل منها ، ووضع مقدمة كتاب العين . وكان يشرك الليث
معه في عمله . ثم بدا له أن يجعل الكتاب تاماً ، بحيث لا يقتصر
فيه على حصر مفردات اللغة وتمييز مهملها من مستعملها ؛ بل
يتعداه إلى وضع معنى كل لفظ ومشتقات كل مصدر . وسر
الليث بهذا الرأي سروراً عظيماً وقال : إن في هذا الغاية .
وما شيء يعادل تحديد معاني الألفاظ حتى لا يخرج عنها . فقال
الخليل : هو كما تقول ، وأرى رغبتك فيه وحسن ذوقك كفيلين
بإتمامه وتحقيقه ؛ فإليك كتاب العين ، فاشرع فيه منذ اليوم .
قال الليث : كيف أجرؤ على ذلك بوجودك ، وأى حق لى بأن
أعمل فيه ، وأضيف من رأيت ، وأنت صاحبه . كلا ، إن ذلك
خروج على نصاب الحق ، وعدول عن نهج الصواب . قال
الخليل : إني شخت يابني ، ولم يعد عندي من الحيل والقوة
ما يدفعني إلى عمل يقتضى عدداً كبيراً من السنين ، على أني
مستعد لقراءة ما تحرر ، وللجواب عن كل سؤال يحول في خاطرك .

أما حقى فى الكتاب ، أفترى أن يكون سبباً لمنع إتمامه ، وقد ذكرت لك تقصيرى فى ذلك . قال الليث : سأشرع فى إتمام الكتاب على نهجك الذى رسمته لى ، وستكون صاحبه أولاً وآخرأ ، وسأقحم فيه أقوالك وتقييداتك فى اللغة التى جمعتها فى دفاترك ، فهل تسمح لى بهذه الدفاتر ؟ قال : هى لك ، ولا تتهيب السؤال منى ومن غيرى ، فالعلم ياصاحبى ليس ملكاً لأحد ، ولا وقفأ على إنسان . وستجد عند فلان وفلان كثيراً من الأشياء التى أجهلها . فهيا ياصاح إلى عملك وفقك الله . انقطع الليث إلى هذا العمل ؛ وكان يقرأ ما يخرج منه على الخليل ، فيقره عليه ، وينبهه إلى ما يقتضى إصلاحه ، حتى مضى فى الكتاب شوطأ . قال الخليل لليث يوماً : لقد أوليتنى يابنى من العناية وحسن الصحبة ما أنا شاكره لك وحافظه فى طيات قلبى . قال الليث عفوأ ياسيدى الشيخ : فإنك صاحب الفضل والإنعام ؛ فقد أجبتنى إلى أمر لم يجب إليه من هم أكبر منى شأنأ ، وأعظم جاهأ وأوسع سلطانأ ، ولست إلا تلميذأ لك يرى من حقتك عليه ومن كامل سروره أن يوفر لك الراحة ما استطاع . ولكنى أراك تريد أن تنتهى من هذا الكلام إلى شىء آخر . قال

الخليل : أجل ، لقد قرب موعد خروج الحاج . وقد اشتقت
 لى مناجاة الله عند كعبته ، ورجائى إليك أن تأمر أصحابك ليهيئوا
 لى سبيل الخروج مع من يخرج . نظر الليث إليه نظر المغمم الحزين ،
 لقد كان يحب أستاذه أكبر حب ، وقد تعشق منه أخلاقه
 لفاضلة ونفسه الطيبة ، ووجد عنده من الفوائد ما لم يلفه عند
 إنسان ، فقال وقد اضطرب صوته : لن أستطيع إلا أن
 ذعن لرغبتك ، لا سيما وقد قصدت أمراً مهيئاً صالحاً . ولكن
 عدنى بأن تعود إلى خراسان بعد قضاء الحج . قال الخليل :
 سأمكنك فى البصرة قليلاً ، حتى إذا أسمعنى الله بقوة على العودة
 عدت إليك ، ورأيت ما تم بكتاب العين ، وإن لم يكن فى ذمة
 الله . وخرج الخليل بعد أيام وبلغ مكة ، فخرج وعاد إلى البصرة
 فكان له أحسن استقبال ، وأجمل زينة ، وخطب الخطباء
 والشعراء فى استقباله ، وحضوا أهل البصرة على ألا يمكنوه من
 الخروج من البصرة ، فهو سيدها وشيخها ، ولا يجوز للسيد أن
 يغادر ملكه ويترك رعيته . والتأمت الحلقة فى اليوم الثانى ،
 واجتمع الطلاب ، وعاد الخليل إلى سابق عهده ، وهو أنيس
 بهذه البلدة التى هى سيدة الأدب بين البلاد .

الفصل العشرون

لفت نظر الخليل في حلقة شاب جميل نظيف أنيق ، كثر
ترداده إليها ، وصموته فيها ، وملازمته لها في أقرب مجلس منه ؛
فصار الخليل يمعن النظر فيه حيناً بعد حين ، فيراه منكباً على
تقييد أقواله ، وكأنه يريد أن يلتهم علمه التهاماً ، فيسره ما يرى
منه ، وينتظر انتهاء الدرس ، فيراه وقد حمل الواحه ، وتنحى جانباً
يدارسها ويقلبها ؛ فيقعد الخليل قريباً منه ، ويراقبه دون أن
يشعره بوجوده ؛ على أن هذا كان مطرقاً لا يلوى على شيء
إلا تلك الأوراق . نهض الخليل من مكانه ، واتجه إليه فجلس
بحذائه ، فالتفت هذا ، فوجد شيخه ، وقد قعد نحوه ؛ فاضطرب
بعض الشيء ، وغير من جلسته احتراماً للأستاذ ، فأوماً إليه
هذا بألا يفعل ، وقال له : لقد استحسنيت عكوفك على الكتابة
في حلقتي ، وسرني منك حسن انتباهك إلى ما أقول ، وأراك
تختلف عن غيرك من الطلاب ، وأقدر أنك ناجح فيما قصدته ،

فمن أى قوم أنت؟ قال: من بنى الحارث بن كعب ومولاهم،
ويأقبنى الناس بسبويه قال: فما أقدمك بلدتنا؟ قال: حبي للعلم
ورغبتي في التحصيل قال: كم لك من الزمن في البصرة؟ قال:
عدة أشهر. قال: وما الذى رغبتك في العربية؟ قال: إن لذلك
قصة، وهو أنى شرعت في طلب الحديث تبركا، فحصل لى منه
بعض العلم، ولما قدمت البصرة، أدخلت على حماد بن سلمة بن
دينار، وهو كما تعلم من شيوخ الحديث عنكم، فأحسن لقائى،
واختبر علمى، وأراد تشجيعى، فعهد إلى بمرافقته إلى الدرس
وبالاستملاء عليه؛ فصرت أرافقه، وأقف بين يديه أستمع إلى
الأحاديث التى يذكرها فأعيدها على الحاضرين، بصوت عال
يسمعه، فأستفيد معرفة من قربى إلى الشيخ، وإلقائى بين
يديه، وأفيد المستمعين بإبلاغ كلامه إليهم. قال الخليل: وزبدة
القول أنك أصبحت مستمليه، وهذا يدل على حسن ثقته بك
وحسن عنايته بأمرك، فماذا حصل بعدها؟ قال: كنت ألقى بين
يديه يوما، وإذا به يروى الحديث الآتى: قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم: ما أحد من أصحابى إلا من لو شئت لأخذت عنه علما،
ليس أبا الدرداء، فأعدت هذا الحديث على الحاضرين، ولكنى

رفعت لفظ أب من قوله ليس أبا الدرداء ، فقلت ليس أبو الدرداء ، فاستوقفني الشيخ . وقال : لحنت ياسيبويه ، فأصابني من الخجل الشيء الكثير ، وانصب العرق من جبينى ، وكبر على أن أغلط بمحضر الشيوخ والفقهاء وطلاب العلم ، وأقررت بخطي فقلت : لا جرم أنى غلطت ، ثم أنشأت أقول : ولكنى لن ألحن بعدها أبداً ، وسأطلب ذلك العلم الذى يعصمنى من اللحن ، ولن أعود إلى هذا المجلس إلا وقد أتقنته ، ثم استأذنت الشيخ ، وأعددت العدة لحضور دروسك ، فأنا منكب عليها مستفيد منها . قال الخليل : حلت أهلاً ووطئت سهلاً يا بنى ، وإنك لترانى جد مسرور بك ، ولك إذا شئت أن تمحضر إلى دارى ، فإنى أعقد فيها دروساً للخاصة ومجالس للاخوان ، وإنك لمنهم . فأقبل سيبويه على يدى الخليل يقبلهما ويشكره .

كثرت تردد سيبويه إلى مجلس الخليل ، وكان كلما قدم عليه ، قال له ما لم يقله لغيره فقال : « مرحباً بزائر لا يمل » وبش له وقال : هات ما عندك ، فينتطق سيبويه فى السؤال يتلو السؤال ، والخليل يبتسم لذلك ، ويجيب مسروراً ضاحكاً ، وسيبويه يكتب على ألواح وقد وجد ضالته . كانت هذه المجالس محببة إلى

الخليل ، فقد كان يجد فيها خزان عله وهي تفتح فيستفاد منها ؛
وكان يجد شخصاً عارفاً قد عمد إلى أئمن مافيا ، يستعرضه ويعجب
به ويحتليه ؛ وهذا ما لم يصح له مع تلاميذه الآخرين . وكان
بعضهم يستمع إلى الخليل وسيبويه يتكلمان ، فلا يفهمون قولها
لبعد ، بل كان الأخفش يستوقف سيبويه في الطريق بعد
خروجه من لدن الخليل ، فيستفهم عما استعصى عليه فهمه في
حديثهما . كان الخليل مبتهجاً بتلميذه ؛ وكان أكثر فرحاً من
أستاذه ، يأخذ الجواب وكأنه ألقى إليه كنز ، وكان يذهب إلى
يونس - ثانی الخليل في البصرة - فيستعيد هذا بالله منه حين
يراه خوفاً من مسأله ، و يترقبها وجلاً ، فيلقها سيبويه معتزاً ،
فيتلثم يونس بالجواب ، ولا يكاد ينتهي منه حتى يقول : ما قال
صاحبك فيه ؟ يعني الخليل ، فيذكر له سيبويه جوابه ،
فيستحسنه ويفتم لأنه لا يصل إلى درجته .

كان الأستاذ والتلميذ مبتهجين من صحبتها ، معجبين كل
منهما بصاحبه ، ينطلقان في ميدان المعرفة ، وقد فتح لهما بابه .
أما يونس فكان مغتماً ، وأما تلاميذ الخليل الآخرون فكانوا
غيورين منكدين . وصح لهم جميعاً سبيل إلى بعض التشفی ،

فانطلقوا الى إراقة دم غيظهم ، وذلك أن يونس جمع أعظم فكره وأكبر عقله ، فوضع مسألة بسيطة في ظاهرها عويصة في طياتها ، وألقاها إلى أصحابه في حلقة ، وفند لهم أمرها ، وأشار إلى وجه الصعوبة فيها ، فنقلها منهم إنسان ، وذهب بها إلى حلقة الخليل ، وقال متواضعا متظاهرا بحب اكتشاف المعرفة : ما قول سيدى الشيخ بكذا ؟ قال ذلك ، ثم جالس على ركبتيه علامة الاحترام ؛ فأطرق الخليل يفكر ، وتلاميذه متململون ، يريد أحدهم لو فسخ له الأستاذ السبيل إلى الجواب . أما الخليل فما زال مطرقا ، ومصاحب يونس ينتظر سريع جوابه ووقوعه بالخطأ ، وكان يغير من جلسته المرة بعد المرة ، مشيراً إلى طول إطراق الخليل ، وحائثاً له على السرعة فى الجواب . ولما وجد أن الخليل استباح لنفسه من الوقت ما يكفى لحل المسألة ، خشى أن يكون حلها ، فأظهر كثرة انشغاله وفراغ وقته ؛ واستأذن وانسحب موهماً أنه أحرز النصر . وما انطلق بعيداً ، حتى انفجر تلاميذ الخليل يقولون : إن ما سألك ليس مما يحتاج إلى فكر ، ولو أشرت إلى أحدنا بالجواب لأسرع إليه . قال : فما الجواب عندكم ؟ قالوا : كذا ، قال ، لو قلتم ذلك لزد عليكم بسؤاله كذا فماذا يكون جوابكم ؟

لوا ، كذا ، قال : فإنه يضيف أمراً جديداً لم تنتبهوا إليه فيقوله
يكون جوابكم ؟ قالوا : نقول كذا ، قال : فإن قال لكم كذا فم
يبون ؟ فنظروا في ذلك ، فوجدوا أنهم ضلوا السبيل بأجوبةهم ،
مكتوا وانقطعوا ، فقال : لقد لمتوني على تأخري في الجواب ،
كنى ما أجبت بجواب قط إلا وأنا أعرف آخر ما على فيه من
لاعتراضات والمؤاخذات ، وقبيح بالمجيب إذا ابتدأ بالجواب أن
يكر بعد ذلك ، وليس معيباً في حقه أن يؤخر الجواب ، فليست
كل أمور العلم تحل في ساعتها ، وما العيب إلا أن يسرع
عالم في العلم ، ثم يتبين له خطأ فيه . ألا إنه إن اخطأ ، ظهر
خطأه ، وأضاع مكانته ، فزلته يضرب لها الناس بالطبل ، كما
ضربون بالطبل لأكبر الحوادث .

ذلك كان شأنه في النظر في علم النحو وغيره ، وكذلك وصل
به إلى أبعاد غاية ، واستخرج منه قواعد أصبحت أسساً له
منذ ذلك الحين . واثن سبقة علماء عديدون في ضبط النحو ،
هو الذي حرر ما جمعوا ، وألف بين أشتات ذلك ، وأعطى
نحو صيغته النهائية . وكان أصحابه يرغبون إليه في أن يخرج لهم
كتاباً يجمع أصول النحو وقواعده فلا يفعل ؛ ولو فعل لما

ترك لغيره سبيلاً إلى الزيادة . وحق أن في أمره عجباً ، فقد كان يحب فائدة المتأدين ، ولم يكن يبخل عليهم بشيء ، فما سر بخ عليهم بكتاب يوفى لهم بالمطلوب ، وهم في أشد الحاجة إليه ؟ أما السبب أن عبقريته كانت تأتي عليه أن يضع كتاباً لا بد أن يحوى أصولاً ليست من وضعه ، وتحليلاً هو لغيره ، وقياساً لا يد فيه ؛ فلئن أخرج في النحو الشيء الكثير ، فهو إنما كان يكم بيتاً مرفوعاً ، وليس في طبعه أن يؤلف من عمل غيره كتاباً يضيف إليه شيئاً من عمله ؛ وما هذا تكبر وخيلاء ، فما كان نفس الخليل ذلك ولكنه طبع قاهر . ولو أذعن لطلبات الطالب فوضع ذلك الكتاب ، لجمع به قلمه ، فلم يرتض بأن ينسب الكتاب إلى نفسه ترفعاً عن قول مالا إبداع فيه . كذلك كان الخليل وكذلك شأن العباقرة .

ولما كثرت مسائل سيبويه — وكانت تأتي مرتبة متتمة متصلة بما قبلها — شعر الخليل أن تلميذه قد اجتاز الشوط الأول من النحو ، فلم يعد متعلماً ، بل أصبح عالماً ينظر إلى الجوه ويحتليه ، ثم بدا للخليل اليوم بعد اليوم أن سيبويه قد اجتاز مرحلة النظر في العلم إلى الوضع فيه والتأليف بين أشتاته

فقال له : لعلك يا عمرو تقصد إلى وضع كتاب في النحو ، فنعم
 الرأي رأيك ؛ إنك يا بني خير من يتصدى لذلك . قال سيبويه
 إنك بهذا تستحثني على عمل قد أقف لجلالته وعظمه . قال :
 كلا ، لن تقف وأنا بذلك ضمين ، فأرني يا بني ما تفعل ، وخذ
 مني ما أحببت ، وإنك بذلك لتلقى عن كتفي عبثاً ثقيلاً ؛ فقد
 كنت شفوفاً على المتعلمين الذين لا يجدون كتاباً يوفيهم حقهم
 من الطلب .

انكب سيبويه على كتابه ، فجمع أقوال أستاذه في النحو ،
 وأضاف إليها أقوال غيره ، ونظمها بعقد معرفته ، وأخرج
 مصنفاً دعاه هو بقران النحو ، ولكن الناس أبوا إلا أن يطلقوا
 عليه لفظ « الكتاب » خالصاً من الإضافة ، وكأنهم عنوا بذلك
 أنه الكتاب الذي ليس بعده كتاب . بلغ سيبويه بكتابه إلى
 ما كان يقصد الخليل منه ، بلغ إلى الإتيان أو الكمال ، لو أن
 الكمال يصح لإنسان ؛ وما كان ليبلغ كل ذلك لولا عون
 الخليل وأقواله ، ولولا روح الإتيان التي تعلمها منه . وهكذا
 أخرج الخليل بجمع سيبويه وصنعه كتاباً للنحو ، كما أخرج
 بجمع الليث معجماً للغة العربية ، وكان نصيب الابداع في المعجم

أوفرمنه في كتاب النحو ، فلم ير الليث غضاضة في نسبه إليه ،
ولو أن بعض العلماء أبوا أن يصدقوا ذلك لأغلاط وردت في المعجم
رأوا التحليل أجل من أن يزل فيها . وكان فكر سيبويه أكثر
ظهوراً في كتاب النحو من فكر الليث في المعجم ، ونسبة كتاب
النحو إلى التحليل أقل من أن توازي إبداع التحليل ، فلم ينسبه
إليه ، ولكنه ذكر فضله فيه .

الفصل الحادى والعشرون

دخل الخليل الأسواق على مجرى عادته ، والعام هو الخامس والسبعون بعد المائة من الهجرة ، فوجد جارية تتخاصم مع بقال وهي تطالبه بدراهم أخذها منها بمغالطته إياها بحساب بينهما ، لم تستطع التحقق منه إلا حين عادت إلى البيت ، وأخبرها سيدها بخطئه وتعالجا كثيراً ، والبقال يدعى أنه أعطاهما كل الحساب ، وأنها تجنى عليه بتهمتها الكاذبة . فأقبل الناس عليهما ليوقفوا بينهما . أما الخليل ، فانطلق به الفكر ، وشرده به الخيال ، وراح يبحث عن نوع من الحساب سهل قريب سريع كان بإمكان هذه الجارية أن تعتمد إليه ، فلا تقع فى الإشكال الذى وقعت فيه . وقرب وقت الصلاة ، فاتجه الخليل إلى الجامع ، وهو لا يزال يفكر ، فدخله ورفع نعليه ، وتقدم فى الحرم إلى البقعة التى اعتاد أن يصلى عندها . وكان يستعرض بباله جدول الضرب ، وعليه

يرتكز حساب البيع والشراء ، وما كان بالرجل الذي يصعب عليه إيجاد حل لما فكر فيه . ولكنه ما سار بعيداً ، وما أكل فكره ، حتى اتجهت قدماه ، وهو غير شاعر ، الى سارية (عمود) كبيرة من سوارى المسجد ، قدت من الصوان القوى ، وما زال سائراً وهو غافل عنها ، وقد أخذ منه الفكر ، حتى اصطدمت رجلاه ببيوت من الخشب أحاطت بالسارية ، يستعملها الناس لوضع نعالهم ، فاختل توازنه ، واندفع أعلاه الى الأمام متجهاً الى السارية ، فاصطدم بها وأول ما اصطدم منه رأسه ، ذلك الرأس الذى كان يشع بالذكاء والإبداع . فوقع عليها وأحدث صوتاً شديداً ، فانقلب على ظهره ، وتدحرج على الأرض مضرجاً بالدماء ، فتراكض الناس اليه ، فألقوه مبتسماً ، وقد عرف أن فى هذا خاتمة ، فنقلوه الى بيته ، فبكى أهله وأصدقائه عليه ، فقال لهم : « لا تبكوا ! فوالله ما فعلت فعلاً أخاف على نفسى منه وما كان لى فضل فكر صرفته الى جهة وددت بعد ذلك أنى كنت صرفته الى غيرها ، وما علمت أنى كذبت متعمداً قط ،

أرجو أن يغفر الله لي التأول . قال ذلك واستكان قليلاً ثم
 ذاهو يصرخ من شدة الألم الذي أصابه . كان منبع هذا الألم
 منه ، ذلك الرأس الذي حوى عقلاً لامثيل له ، ذلك الرأس
 الذي ضم نبوغاً عربياً فائقاً ، ذلك الرأس الذي اكتشف علوماً
 معارف أثبت أن تظهر لغيره ، أو يظهر بعضها لسواه . تلقى
 لخليل الضربة القاضية في أعز قطعة من جسمه ، وكان قد
 سط عقله وأعمل ذكاه . كان قد استخرج مواهبه من مكانها
 بإطلاق سراحها لتبحث له عما يريح الإنسان المسكين الغافل ،
 إذا بها تصطدم بالصخر ، فتتنادى إلى مكانها ، وترتد إلى عقالها
 تجده مكسراً دامياً ، فتتخبط فيه تتخبط الأعشى في الليل
 تسيل عنده دماء حارة ، وهي تصرخ مفعجوعة : إنها لا تريد
 أن تفارق هذا الرأس العزيز ، وقد أحبته خير الحب . إنها
 ترضى بتركه ، وقد استخدمها لأحسن غاية . إنها تأتي أن
 رعه ، وقد جال بها في خفايا الأشياء . إنها لا تقوى أن تباعد عنه
 قد كان خير ملجأ لها . يا للصخر ! إنه لا يفهم ، ولو فهم لما قبل

في حال أن يضرب هذه الرأس النابغة . يا للصخر ! إنه لا يعقل
ولو عقل لأبى أن يلمس إلا في رفق ودعة تلك الرأس التي
ما كانت تفكر إلا بنخير الناس . الا فما أحق أن يكتب علو
هذه السارية :

هنا أصيب العقل وتضرج الفكر ورقد الابداع .

اقرا

أول سلسلة من الكتب الشهرية
تبث رسالة الفكر بين الجمهور
وتشجعه على المطالعة المهذبة المفيدة .

أحرصوا على الاحتفاظ بهذه المجموعة كاملة فهي
ذخر ثقافي قليل النفقة كبير الفائدة وقد تكون في كل
منزل نواة لإنشاء مكتبة يستفيد منها الشيوخ والشباب .

آراء بعض كبار الأدباء :

- « مشروع جليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر في
تغذية الأدب والثقافة » . . .
- « زاد فكري في مختلف أبواب العلم والأدب يستسيغه
الجمهور وترضى عنه الخاصة » . . .
- « هذه السلسلة جهد في سبيل نشر الثقافة وترقية
الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات » . . .

اقرأ

المؤلفات التي ظهرت في سنتها الرابعة (١٩٤٦)

٣٨	العلم والحياة	بقلم الدكتور علي مصطفى مشرفة باشا
٣٩	المدينة المسحورة	بقلم الأستاذ سعيد قطب
٤٠	مهد العرب	بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام بك
٤١	الفيثامينات	بقلم الدكتورين
		محمد رشاد الطوبى ومصطفى عبدالعزيز
٤٢	قصة عبقرى	بقلم الأستاذ يوسف العس



يظهر في أول يونيو سنة ١٩٤٦

الكتاب رقم ٤٣ وعنوانه

عنتر بن شداد

بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

التمن بالنسخة

مصر	٥٠ مليا	سوريا ولبنان	٦٠ غرشا
السودان	٥٠ مليا	العراق	٦٠ فلسا
		فلسطين وشرق الأردن	٦٠ مـلا

مؤلفات السنة الأولى (١٩٤٣)

- | | | |
|----|---------------------------|------------------------------------|
| ١ | أحلام شهرزاد | (قصة) طه حسين |
| ٢ | شاعر الغزل | (أدب) عباس محمود العقاد |
| ٣ | مذبح المريح | (سياسة) فؤاد صروف |
| ٤ | عود على بدء | (قصة) إبراهيم عبد القادر المازني |
| ٥ | دستويفسكي | (ترجمة) حسن محمود |
| ٦ | شاعر ملك | (قصة) علي الجارم |
| ٧ | الشاعر الرجيم | (ترجمة) عبد الرحمن صدقي |
| ٨ | مذكرات دجاجة | (اجتماع) إسحق موسى الحسيني |
| ٩ | المذاهب السياسية المعاصرة | (سياسة) علي آدم |
| ١٠ | شفاء النفس | (اجتماع) يوسف مراد |
| ١١ | السكون العجيب | (علوم) قنزي حافظ طوقان |
| ١٢ | سنوحي | (قصة) محمد عوض محمد |

مؤلفات السنة الثانية (١٩٤٤)

- | | | |
|----|----------------------|--|
| ١٣ | جميل بئينة | (أدب) عباس محمود العقاد |
| ١٤ | من يوميات فتاة عصرية | (قصة) حسين شوقي |
| ١٥ | بايرون | (ترجمة) أمينة السعيد |
| ١٦ | دمشق | (تاريخ) محمد كرد علي |
| ١٧ | شكسبير | (أدب) محمد فريد أبو حديد
زكي نجيب محمود ، احمد خاكي |
| ١٨ | قنديل أم هاشم | (قصة) يحيى حقي |
| ١٩ | سيدة القصور | (») علي الجارم بك |
| ٢٠ | الملك فاروق | (اجتماع) كريم ثابت |
| ٢١ | أبو نواس | (ترجمة) عبد الحليم عباس |
| ٢٢ | جمعا في جانبولاد | (قصة) محمد فريد أبو حديد |
| ٢٣ | صوت أبي العلاء | (أدب) طه حسين بك |
| ٢٤ | لاقوازيه | (ترجمة) عبد الحميد يونس
عبد العزيز أمين |
| ٢٥ | قصة البنسلين | (علوم) مصطفى عبد العزيز |

مؤلفات السنة الثالثة (١٩٤٥)

- | | |
|---------------------------------------|------------------------------|
| ٢٦. العشاق الثلاثة | (أدب) زكى مبارك |
| ٢٧. بغداد | (تاريخ) طه الراوى |
| ٢٨. بوشكين | (ترجمة) نجاتى صدق |
| ٢٩. النار والنور | (علوم) أمين ابراهيم كحيل |
| ٣٠. قطر الندى | (قصة) محمد سعيد العريان |
| ٣١. الغزالي | (ترجمة) طه عبد الباقي سرور |
| ٣٢. الشيخ قرير العين | (قصة) كرم ملحم كرم |
| ٣٣. فى بيتى | (أدب) عباس محمود المقاد |
| ٣٤. فارس بنى حمدان | (قصة) على الجارم بك |
| ٣٥. جوته | (ترجمة) صديق شديوب |
| ٣٦. مع الحيات | (علوم) حسين فرج زين الدين |
| ٣٧. العناصر النفسية
فى سياسة العرب | (اجتماع) شفيق جبرى |



مطبوعات حديثة

٢٠	محمد عبده	بقلم الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق
٥٠	على هامش الطب	بقلم معالي الدكتور سليمان عزمى باشا
٢٥	الغربال	بقلم الأستاذ ميخائيل نعيمة
٣٠	تغريدات الصباح	نظم الأستاذ محمد الأسمر
٢٠	سيوة	بقلم البكباشى رفعت الجوهري
٥٠	القاهرة جزء ثالث	بقلم المهندس فؤاد فرج
٢٠	عودة الروح - أول	بقلم الأستاذ توفيق الحكيم
٤٠	مبادئ علم الأجنة	بقلم الدكتور يوسف الأعسر

مكتبة الأطفال

بقلم الأستاذ كامل كيلاني

مجموعة نفيسة نادرة تحتوي على أكثر
من أربعين كتاباً مصوراً ، مطبوعة
طبعاً أنيقاً ، شهد لها رجال التربية والتعليم
بأنها « تحبب القراءة إلى كل ناشئ » . .



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف
بمصر



دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

أسست في القاهرة سنة ١٨٩٠

- | | |
|--------------------------------|-----------------------------|
| المحل الرئيسي بالقاهرة | : ٧٠ شارع القبالة |
| فرع الاسكندرية | : ٢ ميدان محمد علي |
| مكتب السودان | : شارع السردار بالخرطوم |
| مكتب فلسطين وشرق الأردن | : شارع مأمن الله بالقدس |
| توكيل العراق | : المكتبة العصرية ببغداد |
| توكيل لبنان وسوريا | : شركة فرج الله وحفي بيروت |
| توكيل المملكة العربية السعودية | : مكتبة الثقافة بكة المكرمة |

أقدم دار عربية في الشرق العربي

طالعوا مجلة

الكتاب

التي تقدم الى قراء العربية
في أول كل شهر أبحاثاً قوية
ودراسات رصينة وأنباء طريفة
في مختلف ألوان الآداب والعلوم والفنون

تصدر عن

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر
رئيس تحريرها الأستاذ عادل الغنيم
يشترك في تحريرها كبار كتاب الشرق العا

ثمن النسخة

بمصر والسودان ١٠ قروش بفلسطين وشرق الأردن ١٢٠ ملاً
لبنان وسوريا ١٢٠ غلش بالعراق ١٢٠ فلساً

Bibliotheca Alexandrina



0685387

709

1u